العلامة الكبير الفيض الكاشاني

مقامات القلب

عجائب القلب
التوحيد والتوكل
المحبة والشوق والرضا
النية والصدق

مقامات القلب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقامات القلب

عجائب القلب - التوحيد والتوكل - المحبة والشوق والرضا - النية والصدق

العلامة الكبير الفيض الكاشاني

منشورات ذوي القربىٰ

اسم الكتاب :	المقامات القلب
المؤلف :	فيض كاشانى
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الأولىٰ
تاريخ الطبع :	١٤٢٦
الكمية :	١٥٠٠
المطبعة :	ظهور
شماره مجوز كتاب :	ف / ٢٦ / ١٧٧١٤ ـ ٨ / ١١ / ٨٤
شابك :	٩٦٤ ـ ٥١٨ ـ ٠٥٢ ـ X

مركز پخش : قم ـ پاساژ قدس ـ طبقه اول ـ پ ٥٩ ـ تلفن: ٧٧٤٤٦٦٣ ـ ٢٥١ ـ ٩٨+

عراق ـ نجف الأشرف ـ سوق الحويش ـ همراه: ٠٧٨٠١٠٠٣٥٧٢

القسم الأول

عجائب القلب

معرفة القلب أساس طريق السالكين

إن شرف الإنسان وفضيلته التي بها فاق جملة من أصناف الخلق هو باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا كماله وجماله وفخره، وفي الآخرة عدّته وذخره. وإنما استعد الإنسان لهذه المعرفة بما وهبه الله تعالى من نعمة القلب لا بجارحة من جوارحه.

☐ ميزات القلب:

١ ـ القلب هو العالم بالله، وهو العامل لله، والساعي إلى الله، وهو المتقرّب إليه، وهو الكاشف لما عند الله. وإنما الجوارح اتباع للقلب وخدم له، وآلات يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبيد، واستخدام الراعي للرعية، والصانع للآلة.

٢ ـ القلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب. وهو المثاب والمعاقب.

٣ ـ القلب هو الذي يستعد بالقرب من الله تعالى فيفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودسّاه.

٤ ـ القلب هو المطيع لله بالحقيقة، وإنما الذي يظهر على الجوارح من العبادات فهي أنواره.

٥ ـ القلب هو العاصي والمتمرّد على الله، وإنما ما يظهر على الأعضاء من الفواحش فهو آثاره. وبإظلام القلب واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساوئه، إذ كل إناء يترشح بما فيه.

٦ ـ القلب هو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه. وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربّه. ومن جهل بقلبه فهو بغيره أجهل.

إن أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته بأن لا يوفقه لمشاهدته ومراقبته، ومعرفة صفاته، وكيفية تقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن، وإنه كيف يهوي مرّة إلى أسفل سافلين وينخفض إلى أفق الشياطين، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلا عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين.

ومن لم يعرف قلبه لكي يراقبه ويراعيه ويترصد ما يلوح عليه من خزائن الملكوت، فهو ممن قال الله تعالى فيه:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين.

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.

الفرق بين القلب والنفس والروح والعقل

إن هذه أربعة أسماء ولها معان مختلفة، ويقل في فحول العلماء من يحيط بمعرفتها واختلاف معانيها وحدود تسميتها. وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسماء لاشتراكها في معنى واحد في بعض الأحيان ونحن نشرح من معاني هذه الأسماء ما يتعلق بغرضنا.

☐ معنى القلب:

لفظ القلب يطلق لمعنيين:

الأول: اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر. ولسنا الآن في صدد شرح شكله وكيفيته لأن هذا لا يتعلق بالأغراض الدينية، وإنما يتعلق بذلك غرض الطب والأطباء. وهذا القلب موجود عند البهائم بل وموجود عند الميت. ونحن في هذا الكتاب إذا أطلقنا اسم القلب لم نعن به هذا القلب، فإنه قطعة لحم لا قدر لها وهو من عالم الملك والشهادة بحيث تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين.

الثاني: وهو لطيفة ربانية روحانية لها تعلق بهذا القلب الجسماني. وهذه اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك، والعالم والعارف. وهو المخاطب والمعاتب والمطالب.

وقد تحيّرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته بالجسم. فإن

تعلقها به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام، والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة. أو تعلق المتمكن بالمكان. وشرح ذلك مما نتوقاه لسببين:

الأول: إن ذلك يعود إلى علم المكاشفة، وليس غرضاً في هذا الكتاب إلا علوم المعاملة.

الثاني: إن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وهو لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ، وليس لغيره أن يتكلم فيه.

والقلب بهذا المعنى الثاني هو مقصودنا، وغرضنا ذكر أوصافه وأحواله لا ذكر حقيقته في ذاتها. فعلم المعاملة يتناول معرفة الصفات والأحوال لا حقيقة الشيء وذاته.

□ معنى الروح:

الروح هو أيضاً يطلق لمعنيين:

الأول: وهو جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني وينتشر بواسطة العروق إلى سائر أجزاء البدن. وجريانها في البدن وفيضان أنوار الحياة من الحس والسمع والبصر والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا الدار، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به. فالحياة مثالها النور الحاصل على الحائط، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركتها في الباطن مثاله مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه. والأطباء إذا أطلقوا اسم الروح إنما أرادوا به هذا المعنى. وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب. وليس غرضنا شرحه لأنه غرض الأطباء.

المعنى الثاني: وهو اللطيفة الربانية العالمة المدركة، وهو الذي شرحناه في أحد معنيي القلب وهو الذي أراده الله تعالى بقوله:

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1] وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك كنه حقيقته.

☐ معنى النفس:

للنفس أيضاً معنيان:

الأول: أن يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان على ما سيأتي بيانه. وهذا الاستعمال هو الغالب على الصوفية لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون: لا بد من مجاهدة النفس وكسرها، وإليه الإشارة بقوله ﷺ:

«أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[2].

الثاني: هو اللطيفة التي ذكرناها والتي هي الإنسان في الحقيقة. فهي نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها.

فإذا سكنت وزال عنها الإضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾[3] وإذا لم يتم سكونها، ولكنها صارت تواجه النفس الشهوانية وتعترض عليها؛ سميت بالنفس اللَّوامة، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[4] وإذا تركت النفس الاعتراض وأذعنت للشهوات وأطاعت دواعي الشيطان سميت بالنفس الأمارة، كما

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد.

(٣) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨.

(٤) سورة القيامة، الآية: ٢.

قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1].

وقد يصح أن يقال: إن المراد بالنفس الأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول لأنها النفس المذمومة. أما النفس بالمعنى الثاني فهي محمودة، لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وبسائر الأشياء.

☐ معنى العقل:

العقل هو أيضاً له معنيان:

الأول: إنه قد صار يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي بالقلب.

الثاني: إنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم، فيكون هو القلب أي تلك اللطيفة. ونحن نعلم أن كل عالم له في نفسه وجود وهو أصل قائم بنفسه. والعلم صفة حالّة فيه، والصفة غير الموصوف. والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك؛ أعني المدرك.

وهو المراد بقوله ﷺ: «أول ما خلق الله العقل»[2].

وفي الخبر أنه قال له: «أقبِلْ فأقبَلَ، وقال له: أدبر فأدبر»[3].

فإذن قد انكشف لك معاني هذه الأسماء وهي القلب الجسماني، والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعقل العلمي. فهذه أربعة معان تطلق عليها ألفاظ أربعة. وهناك معنى خامس وهو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان والألفاظ الأربعة التي ذكرناها آنفاً تتوارد بجملتها

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٢) أخرجه الطبراني.

(٣) الكافي: ج١، ص٢٦.

عليها. فالمعاني إذاً خمسة والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين. وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها، فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون: هذا خاطر العقل، وهذا خاطر الروح، وهذا خاطر النفس وهذا خاطر القلب، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء. فلأجل كشف الغطاء عن ذلك قمنا بشرح هذه الأسماء.

أنواع جنود القلب

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، فللّه سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو، ونحن نشير إلى بعض جنود القلب وهو الذي به يتعلق غرضنا، وله جندان:

١ ـ جند يُرى بالبصر.

٢ ـ جند يُرى بالبصيرة.

أما جنده المشاهد بالبصر فهي اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة. فإن جميعها خادمة للقلب ومسخرة له وهو المتصرف فيها. وقد خلقت مجبولة على طاعة القلب لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرداً، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت، وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم وكذا سائر الأعضاء. وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى. فإنهم جبلوا على الطاعة، لا يستطيعون له خلافاً بل: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وإنما يفترقان في شيء وهو أن الملائكة عالمة بطاعتها وامتثالها لربّها، أما الأجفان فتطيع القلب في

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

الانفتاح والإنطباق على سبيل التسخير ولا اختيار لها من نفسها.

وإنما احتاج القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركَبْ والزاد لسفره الذي لأجله خلق، وهو السفر إلى الله تعالى وقطع المنازل إلى لقائه. ولأجل هذا السفر نحو الحق خلقت القلوب فقال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1].

والمركب الذي به يسافر الإنسان نحو الهدف هو البدن، وزاد هذا السفر العلم، والأسباب التي توصله إلى الزاد وتمكنه من التزود منه هي العمل الصالح. وليس يمكن أن يصل القلب إلى الله تعالى ما لم يسكن البدن بالموت ولم يجاوز الدنيا. فإنه لا بد من قطع المنزل الأدنى للوصول إلى المنزل الأقصى. والدنيا مزرعة الآخرة. وإنما سميت الدنيا لأنها أدنى المنزلتين، فاضطر الإنسان إلى أن يتزود من هذا العالم، والبدن مركبه ووسيلته الذي به يسافر من هذا العالم الدنيوي إلى عالم الآخرة.

لذا احتاج الإنسان وافتقر في هذا السفر إلى تعهد البدن وحفظه، وحفظ البدن يكون من خلال أمرين:

١ ـ أن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره.

٢ ـ أن يدفع عنه ما ينافيه ويهلكه.

وافتقر الإنسان لأجل جلب الغذاء إلى جندين:

١ ـ جند باطني؛ وهو الشهوة.

٢ ـ جند ظاهري؛ وهو اليد والأعضاء الجاذبة للغذاء.

فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت له الأعضاء

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

التي هي آلات الشهوة.

وافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين:

١ ـ جند باطني؛ وهو الغضب الذي به يدفع عن نفسه المهلكات، وينتقم من الأعداء.

٢ ـ جند ظاهري؛ وهو اليد والرجل التي بها يعمل بمقتضى الغضب.

ثم إن المحتاج إلى الغذاء إذا لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وآلته، فافتقر لمعرفة الغذاء إلى جندين:

١ ـ باطني: وهو إدراك البصر والذوق والشم والسمع واللمس.

٢ ـ ظاهري: وهو العين والأذن والأنف وغيرها.

وبالجملة فجنود القلب ثلاثة أصناف:

الأول: صنف باعث ومستحث:

أ ـ إما إلى جلب ما هو موافق ونافع؛ كالشهوة.

ب ـ إما إلى دفع ما هو ضار ومنافٍ؛ كالغضب.

وقد يعبر عن هذا الباعث أحياناً بالإرادة.

الثاني: وهو المحرك للأعضاء لأجل تحصيل هذه المقاصد، ويعبّر عن هذا الصنف بالقدرة، وهي جنود مبثوثة في سائر الأعضاء لاسيما العضلات والأوتار.

الثالث: وهو الصنف المدرك والمتعرف على الأشياء؛ وهي قوة البصر والسمع والشمّ والذوق وغيرها. ويعبر عن هذا الصنف بالعلم والإدراك.

ويوجد مع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة هي الأعضاء المركبة من اللحم والشحم والعصب والدم والعظم، التي هي بمثابة الآلات لهذه الجنود الباطنة. فقوة البطش إنما تبطش بالأصابع. وقوة البصر إنما تدرك الأشياء بواسطة العين، وكذا سائر القوى.

وهذا الصنف الثالث وهو العلم والإدراك ينقسم إلى:

١ ـ ما قد أسكن المنازل الظاهرة؛ وهي الحواس الخمس، أعني السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

٢ ـ ما أسكن المنازل الباطنة وهي:

١ ـ الخيال: فالإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينيه فيدرك صورته في نفسه، وهذا هو الخيال.

٢ ـ الحافظة: إن الصورة التي يتخيلها الإنسان يمكن أن تبقى معه بسبب شيء يحفظه وهو ما يسمى بالحافظة.

٣ ـ التفكر: وهي عندما يتفكر الإنسان فيما حفظه فيركّب بعض ذلك إلى بعض.

٤ ـ الذاكرة: وهي القوة التي يتذكر بواسطتها ما نسيه ويعود إليه.

العلاقة بين القلب وجنوده الباطنية

إن جنديي الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تاماً فيعينانه على طريقه الذي يسلكه ويحسنان مرافقته في سفره.

وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرّد حتى يملكاه ويستعبداه، فيكون في ذلك هلاكه وتوقفه عن سفره الذي به يكون وصوله إلى السعادة الأبدية.

وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر وحق القلب أن يستعين بهذا الجند ليتقوى على الجندين الآخرين (الشهوة والغضب)، فهذا الجند بمثابة حزب الله عليهما، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان.

إذاً إن ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقيناً وخسر خسراناً مبيناً. وهذا هو حال أكثر الخلق، حيث صارت عقولهم مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة. وكان من المفترض أن تكون مسخرة لعقولهم.

فمثل نفس الإنسان في بدنه ـ وأعني بالنفس اللطيفة المذكورة سابقاً ـ كمثل والٍ في مملكته. فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرّها وقواه وجوارحه بمنزلة العمال والصناع، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل، والشهوة له كعبد سوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة.

والعبد الجالب للميرة كذاب مكّار مخادع خبيث يتمثل بصورة الناصح في كل تدبير يدبّره حتى لا يخلو عن منازعته ومعارضته في آرائه ساعة واحدة. فكما أن الوالي في مملكته متى استشار في تدبير أموره وزيره وأعرض عن العبد الخبيث وأدب صاحب شرطته وأسلمه لوزيره وجعله مؤتمراً له وسلطه على العبد الخبيث، استقام أمر بلده وانتظم العدل، فكذلك النفس متى استعانت بالعقل وأدّبت الحمية الغضبية وسلطتها على الشهوة، واستعانت في بعض الأحيان بإحداها على الأخرى، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها. ومن عدل عن هذا الطريق كان كمن قال الله تعالى فيه:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(١).

وقال فيه تعالى أيضاً: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾(٢).

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾(٣).

وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾(٤).

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٤) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

صفات القلب

إن الإنسان قد جمع في تركيبه وخلقته أربع شوائب، لذا اجتمعت عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي:

١ ـ الصفات السبعية.

٢ ـ الصفات البهيمية.

٣ ـ الصفات الشيطانية.

٤ ـ الصفات الربانية.

ـ فهو من حيث سلّط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم.

ـ ومن حيث سلّطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره.

ـ ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فإنه يدّعي لنفسه الربوبية ويحب الاستيلاء والاستعلاء والاستبداد بالأمور كلها والتفرّد بالرئاسة والإنسلال عن ربقة العبودية والتواضع. ويشتهي الإطلاع على العلوم كلها، بل يدعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور، ويفرح إذا نسب إليه العلم ويحزن إذا قرن بالجهل.

فالإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهرُ على جميع الخلائق من الأوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك.

- ومن حيث إن الإنسان تميّز عن البهائم مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه صفات الشيطنة فصار شريراً يتوصل إلى أغراضه بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشر في معرض الخير. وهذه أخلاق شيطانية.

فكل إنسانٍ فيه شوب من هذه الصفات الأربع - أعني الربوبية والشيطانية والسبعية والبهيمية - وكل ذلك مجموع في القلب، وكأنه جمع في الإنسان أربعة:

١ - خنزير.

٢ - كلب.

٣ - شيطان.

٤ - حكيم.

١ - فالخنزير: هو الشهوة، والخنزير إنما كان مذموماً لجشعه وحرصه لا لشكله وصورته ولونه.

٢ - الكلب: هو الغضب؛ فإن السبع الضاري أو الكلب العقور ليس سبعاً باعتبار الصورة واللون والشكل، بل باعتبار روح السبعية التي هي الضراوة والعدوان والعقر.

وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه. فالخنزير يدعو بالشّره إلى الفحشاء والمنكر، والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء.

٣ - أما الشيطان: فلا يزال يهيّج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه من الشهوة والضراوة.

٤ ـ الحكيم: وهو مثال العقل المأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره، من خلال الكشف عن تلبيساته وحيله ببصيرته النافذة ونوره المشرق، ومن خلال كسر شره الخنزير بتسليط الكلب عليه، إذ الغضب يكسر سورة الشهوة، ويدفع ضرارة الكلب بتسليط الخنزير عليه. وبذلك يجعل الكل مقهوراً تحت سياسته.

فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى والكل على الصراط المستقيم. وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب حتى يصبح عابداً للكلب والخنزير.

وهذه هي حال أكثر الناس، حيث صار همهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء. والعجيب من هذا الإنسان أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة، وهو نفسه لو كشف عنه الغطاء وكوشف بحقيقة حاله لرأى نفسه ماثلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرّة وراكعاً له أخرى، منتظراً إشارته وأمره. فكلما هاج الخنزير لطلب شيء من شهوته، انبعث هذا المسكين على الفور في خدمته.

أو رأى نفسه ماثلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً وسامعاً لأمره. وهو بذلك أيضاً ساعٍ في مسرّة شيطانه فإنه هو الذي يهيّج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه، لذا كان من هذا الوجه عابداً للشيطان أيضاً ومطيعاً له.

فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده، ولينظر بعين البصيرة، فلن يرى إن أنصف نفسه إلا ساعياً طوال النهار في عبادة هؤلاء. وهذا غاية الظلم لأنه جعل المالك مملوكاً، والرب مربوباً، والسيد عبداً، والقاهر مقهوراً. ولأن العقل هو المستحق للسيادة والقهر والإستيلاء، في حين أنه سخّره لخدمة هؤلاء الثلاثة. فلا جرم إذاً

أن تثمر هذه الطاعة لهؤلاء الثلاثة صفات خبيثة تتراكم عليه حتى تصير طبعاً فيه ويناً مهلكاً للقلب ومميتاً له.

☐ آثار طاعة الشهوة والغضب والشيطان:

١ ـ أما طاعة الخنزير: فتثمر صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحقد والحسد والشماتة وغيرها.

٢ ـ أما طاعة الكلب: فتثمر في القلب صفة التهوّر والبذالة والبذخ والصلف والإستشاطة والتكبّر والعجب والإستهزاء والفخر والإستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشرّ وشهوة الظلم وغيرها.

٣ ـ أما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب: فتثمر صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجربزة والتلبيس والغش والخداع والفحش في الكلام وأمثالها.

☐ آثار الطاعة للصفات الربانية:

أما لو عكس الأمر فقهر الإنسان هذه الصفات الثلاث تحت سياسة الصفة الربانية لاستقرّ في القلب من الصفات الربانية؛ العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه.

فيضبط بذلك الشهوة ويردها إلى حد الاعتدال فتورث في قلبه صفات شريفة مثل: العفة والقناعة والزهد والورع والتقوى والإنبساط وحسن الهيئة والحياء ومساعدة الآخرين وأمثالها.

وكذلك يضبط قوة الغضب ويقهرها ويعيدها إلى حد الاعتدال فتثمر في قلبه صفات الشجاعة والكرم وضبط النفس والصبر والحلم والتحمل والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها.

فالقلب في حكم المرأة التي تتأثر بما يرد عليها من آثار الطاعة كل من صفات الشهوة والغضب والشيطنة والربانية.

فالآثار المحمودة التي تنشأ من تسخير الصفات الثلاث للصفات الربانية فتزيد مرآة القلب جلاءً وإشراقاً ونوراً وضياءً حتى يتلألأ فيه تجلي الحق وتنكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين.

وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله ﷺ:

«إذا أراد الله بعبدٍ خيراً جعل له واعظاً من قلبه»[(١)].

وبقوله ﷺ: «من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ» وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر، كما قال عز وجل:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(٢)].

وأما الآثار المذمومة التي تنشأ من طاعة الشهوة والغضب والشيطان، فإنها مثل الدخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرّة بعد أخرى إلى أن يسودّ القلب ويظلم بالكامل، فيصير محجوباً عن الله تعالى، وهو الطبع والرين، كما أشار إليه قوله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[(٣)].

وقال تعالى:

﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٣) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.

فربط عز وجل عدم السماع بارتكاب الذنوب، كما ربط في آية أخرى السماع بالتقوى فقال:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾[1]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2]. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[3].

فكلما تراكمت الذنوب طبع على القلب أكثر حتى يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين، ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا. فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل ذلك من أذن وخرج من الأخرى، فلم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك. وهؤلاء هم الذين قال فيهم تعالى:

﴿يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

وهذا هو معنى ظلمة القلب واسوداده كما نطق به القرآن الكريم والسنة الشريفة.

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:

«ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإن أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خيرٍ أبداً، وهو قول الله عز وجل:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٤) الكافي: ج٢، ص٢٧٣، ح٢٠.

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إن القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء والخير والشر فيه يعتلجان فأيهما كانت منه غلب عليه، وقلب مفتوح فيه مصابيح يزهر لا يطفأ نوره إلى يوم القيامة وهو قلب المؤمن»(١).

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال:

«قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس»(٢).

فطاعة الله بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب، ومعصيته مسوّدة له. فمن أقبل على المعاصي اسودّ قلبه، ومن اتبع السيئة الحسنة ومحى أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره، كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ثم يتنفس فيها ثم تمسح، فإنها لا تخلو من كدورة. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾(٣).

فأخبر تعالى أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر، وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا. فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز بلقاء الله تعالى.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٢٣.
(٢) أخرجه أحمد: ج٢، ص١٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

الأسباب المانعة من تجلي الحق في القلب

إن القلوب مرآة مهيئة لكي تتجلى فيها حقيقة الحق في الأمور كلها، وإنما خلت القلوب من الكشف والعلم لأسباب خمسة:

الأول: نقصان في ذات القلب، كقلب الصبي فإنه لا تتجلى له المعلومات لنقصانه.

الثاني: لكدورة المعاصي والخبائث التي أخذت بالتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات. فالمعاصي تمنع من صفاء القلب وجلائه، فيمتنع ظهور الحق فيه بقدر ظلمته. وإليه الإشارة بقوله ﷺ:

«من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً».

أي حصلت في قلبه كدورة لا يزول أثرها أبداً. إذ غايته أن يتبع الذنب بحسنة تمحوه بها. وإذا جاء بالحسنة ولم يقترف السيئة لازداد لا محالة إشراق القلب. وإذا أتى بالسيئة سقطت فائدة الحسنة، وعاد القلب إلى ما كان عليه قبل السيئة، ولم يزدد بها نوراً. وهذا خسران مبين ونقصان لا محالة. فليست المرآة التي تدنس ثم تمسح كالتي لم تدنس أصلاً.

فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه. ولذلك قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾(١).

وقال النبي ﷺ:

«من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم»(٢).

الثالث: أن يكون القلب معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة. فقد يكون القلب المطيع الصالح صافياً ولكن لم يكن أهلاً لتجلي الحق فيه، لأنه ليس يطلب الحق، ولم ييمم مرآته شطر المطلوب.

وربما كان مشغولاً بالطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة فلا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها، أو في مصالح المعيشة.

فإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعاً من انكشاف تجلي الحق، فما ظنك في من صرف الهم في الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها، فكيف لا يمنعه ذلك عن الكشف الحقيقي؟!

الرابع: حجاب الاعتقادات الفاسدة: فإن المطيع القاهر لشهواته، المتجرد للفكر في حقيقة من الحقائق قد لا تنكشف له هذه الحقيقة لكونه محجوباً عنها بسبب اعتقاد خاطىء كان يحمله منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن. فإن هذا الاعتقاد الفاسد يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من تقليده.

وهذا حجاب عظيم قد حجب به أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب بل وأكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السماوات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم فصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

الخامس: الجهل بالطريق والجهة التي منها يحصل العلم. فإن طالب العلم لا يمكنه أن يعلم بما هو جاهل به إلا عن طريق تذكر العلوم التي تناسب مطلوبه، حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً خاصاً فعند ذلك يكون قد عثر على المطلوب فتتجلى حقيقة مطلوبه في قلبه.

فإن العلوم التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحصولية، بل كل علم لا يحصل إلا عن طريق علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث. فلكل علم أصلان مخصوصان بينهما طريق في الإزدواج، يحصل من ازدواجهما العلم المطلوب.

فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الإزدواج هو المانع من العلم. فلإقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات يعزّ على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الإزورارات.

فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور، وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف. وإنما امتاز الإنسان عن سائر الموجودات بهذه الخاصية والشرف، وإليه الإشارة في قوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾(1).

فقوله عز وجل إشارة إلى أن للإنسان خاصية تميّز بها عن السماوات والأرض والجبال، وبها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد.

وقلب كل آدمي مستعد في الأصل لحمل الأمانة وهو مطيق لها،

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

ولكن ثبّطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها. ولذلك قال النبي الأكرمﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه»[1].

وقوله:

«لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء».

فهذه إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي حجاب بين القلب والملكوت، وإليه أيضاً الإشارة بما روي: «أنه قيل لرسول اللهﷺ: أين الله في الأرض أو في السماء؟ قالﷺ: في قلوب عباده المؤمنين».

وفي الخبر، قال الله تعالى:

«لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع».

وفي الخبر:

أنه قيل للنبيﷺ: من خير الناس؟ فقالﷺ: كل مؤمن مخموم القلب: فقيل: وما مخموم القلب؟ فقالﷺ: هو التقي النقي الذي لا غشَّ فيه ولا بغي ولا غدر ولا غلّ ولا حسد»[2].

ولذلك قال عليعليه السلام: «رأى قلبي ربي» لأنه قد رفع الحجاب عنه بالتقوى، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين ربّه تجلّت صورة الملك

---

(١) أخرجه أبو داود: ج٢، ص٥٣١.
(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: رقم ٤٢١٦.

والملكوت في قلبه؛ فيرى جنة عرض بعضها كعرض السماوات والأرض، أما جملتها فأكثر سعة من السماوات والأرض لأن السماوات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف إلا أنه متناه. وأما عالم الملكوت وهو عالم الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار، المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له، نعم إن ما يلوح منه في القلب مقدار متناه، ولكنه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله تعالى لا نهاية له.

وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة فتسمّى الحضرة الربوبية، لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله وصفاته. فما يتجلى من ذلك في القلب هو الجنة بعينها، وتكون سعة ملكه في الجنة بحسب معرفته وبمقدار ما تجلّى له من الله سبحانه وصفاته وأفعاله. وإنما المراد بالطاعات وأعمال الجوارح؛ تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه، وقد أفلح من زكاه. والمراد بتزكيته حصول أنوار الإيمان فيه، أعني إشراق نور المعرفة، وهو المراد بقوله تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾[1].

وبقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[2] ثم إن لهذا التجلي وهذا الإيمان ثلاث مراتب:

١ ـ إيمان العوام: وهو إيمان التقليد المحض. فهم عندما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم عن وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته، وبعثه الرسول وصدقه، فقبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه، ولم يخطر في بالهم خلاف ما قالوه لحسن ظنهم بآبائهم

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

وأمهاتهم ومعلميهم. وهذا الإيمان إن كان صحيحاً فهو سبب النجاة في الآخرة، وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا هم من المقربين لأنه ليس في قلوبهم كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين.

٢ ـ إيمان المتكلمين: وهو إيمان ممزوج بالإستدلال، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام.

٣ ـ إيمان العارفين: وهي المشاهدة بنور اليقين. وهي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية، وهي معرفة المقربين والصديقين، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة.

وإن كانوا أيضاً يتفاوتون فيما بينهم بمقادير العلوم وبدرجات الكشف.

ميّزات قلب الإنسان

كما أنعم الله تعالى على الآدمي كذلك أنعم عز وجل على الحيوانات بالشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة. حتى أن الشاة ترى الذئب بعينها وتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه. ولكن اختص الإنسان بشيء لم يكن عند الحيوان وهو القلب، ولأجله عظم شرف الإنسان وقدره واستأهل القرب من الله تعالى. وللقلب خاصيتان كانتا السبب في علوّ شأنه وارتفاع منزلته وهما: العلم والإرادة.

١ ـ أما العلم: فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية، والحقائق العقلية. فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشارك فيها الحيوانات. بل إن العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل. فعقل الإنسان يحكم بأن الفرس الواحد لا يتصوّر أن يكون في مكانين في حالة واحدة. وهذا حكم منه على كل فرس، رغم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأفراس. فحكمه على جميع الأفراس زائد على ما أدركه الحس.

٢ ـ أما الإرادة: وهي أنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح، انبعث من ذاته شوق إلى وجهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها. وهذا غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات، بل هو ضد الشهوة. فإن الشهوة تنفر من الحجامة والعاقل يريدها ويبذل المال عليها. والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في المرض والعاقل يجد في نفسه زجراً عنها. ولو خلق الله العقل الكاشف والمعرّف لعواقب الأمور ولم يخلق هذا

الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعاً وغير مصيب للحقيقة.

إذا اختُصَّ قلب الإنسان بالعلم والإرادة وهما غير موجودين عند الحيوانات، بل حتى الصبي غير البالغ محروم منهما. أما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في الحيوان وكذلك في الصبي.

العلم وكيفية حصوله

إن لحصول العلم عند الإنسان درجتين:

الأول: أن يشتمل قلبه على جملة من العلوم الضرورية الأولية؛ كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات.

الثاني: أن تحصل له العلوم بالتجارب والفكر. فتكون كالمخزونة عنده فإذا شاء رجع إليها.

ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى، يتفاوت فيها الخلق بكثرة المعلومات وقلتها، وبشرفها وخستها وبطريق تحصيلها.

إذاً يحصل العلم لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضها بتعلم واكتساب.

ثم قد يكون ذلك سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول. وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأولياء والأنبياء، ودرجات الترقي فيه غير محصورة إذ معلومات الله تعالى لا نهاية لها، وأقصى الرتب رتبة النبيﷺ الذي انكشفت له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلّف بل بكشف إلهي. وفي هذا الكشف السعادة الحقيقة وبه ينال العبد القرب من الله تعالى ويتدرج في مراتب الكمال. وهذه المراتب هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك المنزل الذي بلغه في سلوكه فيطلع عليه ويعرف

ما خلفه من المنازل. أما معرفة كل المنازل فلا يحيط السالك بحقيقتها، لكن قد يصدق بها ويؤمن بها بالغيب، كما أنا نؤمن بالنبوة وبالنبي ونصدق بوجود ذلك، ولكن يبقى أنه لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبيﷺ. فلا يعرف عاقل ما انفتح على أولياء الله وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[1].

وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم الإلهي وغير مضنون[2] بها على أحد ولكن إنما تظهر هذه الرحمة على القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله كما قالﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ولا تعرضوا عنها»[3]. والتعرض لهذه النفحات بتطهير القلوب وتزكيتها عن الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة.

وإلى هذا الجود الإشارة بقولهﷺ:

«ينزل الله تعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: هل من داع فأستجيب له»[4].

وبقولهﷺ حكاية عن ربه عز وجل:

«لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً».

وبقوله تعالى في الحديث القدسي:

«من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً»[5].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢.
(٢) مضنون: من ضنّ: أي بخل.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه مسلم: ج٢، ص١٧٥.
(٥) أخرجه مسلم: ج٨، ص٦٦.

وكل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلب لبخل أو منع من جهة المنعم، تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً، ولكن حُجِبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب. فإن القلوب كالأواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء. فكذلك هي القلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله. وإليه الإشارة بقوله ﷺ:

«لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات».

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان بالعلم والحكمة، وإن أشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله. وذلك هو كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الكمال والجلال.

فالبدن مركب للنفس، والنفس محلّ للعلم، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجلها خلق.

إن الإنسان يشارك الحيوانات في أمور ويفارقها في أمور هي خاصيته، وتلك الخاصية هي من صفات الملائكة المقربين من الله تعالى، والإنسان على رتبة بين الملائكة والبهائم. فمن استعمل أعضاءه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة، فحقيق عليه إذاً أن يلتحق بهم وجدير بأن يسمى ملكاً ربانياً كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1].

ومن صرف همته في اتباع اللذات البدنية فأخذ يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحطّ إلى حضيض أفق البهائم، فصار غمراً[2] كثور أو شرِهاً كخنزير وإما ضرياً ككلب أو سنّور أو حقوداً كجمل أو متكبراً كنمر أو ذا مكر كثعلب، أو قد يجمع ذلك كله كشيطان مريد.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣١.

(٢) غمراً: دسم كثير الشحم.

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة بها على طريق الوصول إلى الله، فمن استعمله فيه فقد فاز، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب. وجملة السعادة أن يجعل الإنسان لقاء الله مقصده، والدار الآخرة مستقرّه، والدنيا طريقه، والبدن مركبه، والأعضاء خدمه. فإذا فعل ذلك كان موفقاً سعيداً شاكراً نعمة الله. وإذا عطل قواه أو سخرها لطاعة الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أو في عمارة الدنيا، كان مخذولاً شقياً كافراً لأنعم الله مضيعاً لحقوق جنود الله، ناصراً لأعداء الله، خاذلاً لحزب الله تعالى، فيستحق على هذا المقت والإبعاد في المنقلب والمعاد، نعوذ بالله من ذلك.

أقسام العلوم

إن القلب بغريزته مستعد لقبول الحقائق كما سبق وذكرنا، ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى نوعين:

١ ـ علوم عقلية.

٢ ـ علوم شرعية.

١ ـ العلوم العقلية:

تنقسم العلوم العقلية إلى قسمين:

١ ـ علوم ضرورية.

٢ ـ علوم مكتسبة: تنقسم أيضاً إلى نوعين:

١ ـ علوم مكتسبة دنيوية.

٢ ـ علوم مكتسبة أخروية.

ونعني بالعلوم العقلية ما تقضي به غريزة العقل فلا تؤخذ بالسماع والتقليد. وهي تنقسم إلى:

ـ ضرورية: لا يدرى من أين حصلت ولا كيف حصلت: كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في آن واحد، وأن الشيء الواحد لا يكون حادثاً وقديماً، أو موجوداً ومعدوماً معاً. فإن

هذه العلوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها، فلا يدري متى حصلت ولا أين ولا كيف حصلت. ولكن يدري شيئاً واحداً وهو أن الله تعالى هو الذي خلقها.

ـ مكتسبة: وهي العلوم المستفادة بالتعلم والاستدلال.

وكلا القسمين قد يسمى عقلاً، والأول هو المراد بقول النبيﷺ

«ما خلق الله خلقاً هو أكرم عليه من العقل»(١).

والثاني هو المراد بقولهﷺ لعليعليه السلام:

«إذا تقرّب الناس إلى الله تعالى بأنواع البرّ فتقرب إليه أنت بعقلك»(٢).

وتنقسم العلوم العقلية إلى:

ـ علوم دنيوية: كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات.

ـ علوم أخروية: كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال، والعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله.

وهما علمان متنافيان، أي من صرف عنايته إلى أحدهما قصرت بصيرته عن الآخر. ولذلك ضرب الإمام عليعليه السلام للدنيا والآخرة مثلاً فقالعليه السلام:

«إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان وسبيلان مختلفان: فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق وماش بينهما، كلما قرب من

---

(١) أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول.

(٢) الرسالة المعراجية، ابن سينا.

واحد بعد من الآخر وهما ضرّتان»[1].

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والهندسة والحساب والفلسفة جهالاً في أمور الآخرة. والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالاً في أكثر علوم الدنيا. لأن قوة العقل لا تفي بالأمرين معاً في الغالب، فيكون أحدهما مانعاً من كمال الثاني. ولذلك قال النبي ﷺ: «أكثر أهل الجنة البله» أي البليد في أمور الدنيا.

فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسّر إلا لمن رسخه الله تعالى لتدبير عباده في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء عليهم السلام، المؤيدون بروح القدس، المستمدون من القوة الإلهية. فقلوبهم تتسع لجميع الأمور ولا يضيق عنها. وأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا اشتغلت بأمر انصرفت عن الآخر.

٢ ـ العلوم الشرعية (الدينية):

أما العلوم الدينية فهي مأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم. وهذا يتم من خلال الرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفهم معانيهما. وبه كمال صفة القلب وبه سلامته من الأمراض والعلل.

فالعلوم العقلية غير كافية لوحدها في سلامة القلب وإن كان محتاجاً إليها. كما أن العقل غير كاف لوحده في استدامة أسباب صحة البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير عن طريق التعلم من الأطباء. فالعقل لوحده لا يهدي إلى خواص الأدوية ولكن في نفس الوقت لا يمكن فهم ما يسمعه حول خصائص هذه العقاقير إلا بالعقل. إذاً فلا غنى عن العقل.

---

(١) نهج البلاغة: أبواب الحكم، رقم ١٠٣.

أما من يدعو إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية فجاهل، وكذلك المكتفي بمجرد العقل لفهم القرآن والسنة فمعذور.

فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين. فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية، كالمريض الذي يتضرر بالغذاء إذا فاته الدواء. فكذلك أمراض القلب لا يمكن علاجها إلا بأدوية مستفادة من الشريعة، وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب.

فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادات الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضرّ بها كما يستضرّ المريض بالغذاء.

الفرق بين الإلهام والتعلم

إن العلوم غير الضرورية والتي تحصل في القلب في بعض الأحوال يختلف الحال في حصولها. فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم.

فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمّى **إلهاماً**.

والذي يحصل بالاستدلال والدليل يسمّى **اعتباراً واستبصاراً**.

ثم إن العلم الواقع في القلب بغير حيلة واجتهاد ينقسم إلى:

■ ما لا يدري العبد كيف حصل ولا من أين حصل ويسمى **إلهاماً ونفثاً في الرّوع**.

■ ما يطلع معه على السبب الذي منه استفيد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الذي يلقي هذه العلوم في القلب، ويسمى وحياً. ويختص به الأنبياءﷺ. أما الإلهام فيختص به الأولياء والأصفياء. أما المكتسب بطريق الإستدلال فيختص به العلماء.

وحقيقة القول إن القلب مستعد لأن تتجلّى فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، وإنما حيل بينه وبينها للأسباب الخمسة التي سبق ذكرها. فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش فيه جميع ما قضى الله تعالى به إلى يوم القيامة.

وتجلّي حقائق العلوم من مرآة اللوح المحفوظ في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد، وأخرى يزول بهبوب ريح تحركه. وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتكشف الحجب عن أعين القلوب فيتجلّى فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون تارة في المنام فينكشف فيه ما سيكون في المستقبل، وفي اليقظة أيضاً إذ قد ينقشع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فيلمع في القلب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف، وأخرى على التوالي إلى حد ما، ودوامه في غاية الندور. أما ارتفاع الحجاب فيحصل بالموت وبه ينكشف الغطاء.

فالإلهام يفارق الاكتساب من جهة أن الإلهام يحصل بعد زوال الحجاب وأن ذلك ليس باختيار العبد. والإلهام يفارق الوحي من جهة أن الوحي يرافقه مشاهدة الملك المفيد للعلم.

فإن العلوم إنما تحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾(١).

فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل المجاهدة إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، لذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا:

إن الطريق هو تقديم المجاهدة؛ بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى. وإذا حصل ذلك كان

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥١.

الله تعالى هو المتولي لقلب عبده المتكفل بتنويره بأنوار العلم. فإذا تولّى الله تعالى أمر القلب فاضت الرحمة وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سرّ الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب العزّة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على المريد إلا الاستعداد بالتصفية المجرَّدة وإحضار الهمّة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الرحمة.

فالأنبياء والأولياء انكشفت لهم الأمور وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة بل بالزهد في الدنيا، والتبري من علائقها، وتفريق القلب عن شواغلها، والإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى: «فمن كان لله كان الله له» وليس للسالك المجاهد الاختيار في استجلاب رحمة الله بل هو بما يفعله وما قد فعله متعرض لنفحات الرحمة فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله له من رحمته التي فتحها على الأنبياء والأولياء الذين سلكوا هذا الطريق. وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته، وحسنت مواظبته، ولم تجذبه شهواته، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا، عندها تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود من جديد وقد يتأخر وإن عاد فقد ثبت. وإن ثبت فقد يطول ثباته وقد لا يطول، فمنازل أولياء الله لا تحصى.

إذاً هذا الطريق يرجع إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار فقط.

أما أصحاب طريق التعلم فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضاءه إلى المقصد لأنه حال الأنبياء والأولياء، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطأوا ثمرته، واستبعدوا اجتماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر، وإن حصل في حاله فثباته أبعد منه، إذ أن أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب، وقد قال رسول الله ﷺ:

«قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها»[1].

وقال أيضاً ﷺ:

«قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء»[2].

أضف إلى ذلك أنه في أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، وإذا لم تكن رياضة النفس وتهذيبها مسبوقة بحقائق العلوم فستنشب في القلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن تزول والعمر ينقضي دون النجاح فيها. فكم من مجاهد سلك هذا الطريق ثم بقي في الخيال مدة. ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال، فالإشتغال إذاً بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض.

(١) أخرجه أحمد: ج٦، ص٤.

(٢) الحاكم في المستدرك: ج١، ص٥٢٥.

كيفية حصول العلم الملهم من القلب

إن العلوم يمكن أن تساق إلى القلب بواسطة الحواس حتى يمتلىء علماً، ويمكن أن يحصل ذلك أيضاً بالخلوة والعزلة وغض البصر وتطهير القلب ورفع طبقات الحجب عنه، حتى يتفجر العلم من داخله.

ولسائل أن يسأل عن كيفية تفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه؟

في الحقيقة أن هذا من عجائب أسرار القلب التي لا يسمح بذكرها في علم المعاملة، والقدر الذي يمكن ذكره والإفصاح عنه؛ هو أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ، بل في قلوب الملائكة المقربين. فكما أن المهندس يسطر صورة أبنية الدار في بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة، فكذلك فاطر السماوات والأرض كتب نسخة العالم من أوّله إلى آخره في اللوح المحفوظ، ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة. والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته يتأدّى منه صورة أخرى إلى الحواس والخيال. فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغضّ بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها، ولو انعدمت السماء والأرض ثم بقي هو لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدها وينظر إليها. ثم يتأدّى من خياله أثر إلى قلبه فيحصل فيه حقائق الأشياء التي وجدت في الحس والخيال.

فالحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ.

وكان للعالم أربع درجات في الوجود:

١ ـ وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني.

٢ ـ ويتبعه وجوده الحقيقي.

٣ ـ ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي ـ أي وجود صورته في الخيال ـ.

٤ ـ ويتبع وجوده في الخيال وجوده العقلي ـ أي وجود صورته في القلب ـ وبعد هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية، والروحانية بعضها أشد روحانية من بعض.

فالقلب إذاً يتصوّر أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من اقتباس الحواس، وتارةً من اللوح المحفوظ. كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها، وأخرى من النظر إلى الماء الصافي الذي يقابل الشمس ويحكي عن صورتها. فكلما ارتفع الحجاب المسدل بين القلب واللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه، وتفجر في القلب العلم منه، فاستغنى عن الاقتباس من مداخل الحواس. فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض.

وكلما أقبل القلب على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ، كما إذا اجتمع ماء من الأنهار في الحوض فإن ذلك يمنع من تفجره من الأرض. فمن ينظر إلى الماء الذي يحكي عن صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس.

إذن للقلب بابان؛ باب مفتوح على عالم الملكوت وهو اللوح

المحفوظ وعالم الملائكة، وباب مفتوح على الحواس الخمس المرتبطة بعالم الشهادة والملك، وعالم الشهادة والملك يحاكي أيضاً عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة. أما انفتاح باب القلب على الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك، وأما انفتاح بابه الباطني على عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلَمَهُ علماً يقيناً بالتأمل في عجائب الرؤيا، واطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل. وإنما ينفتح ذلك الباب لمن أفرد ذكر الله تعالى.

قال النبي ﷺ:

«سبق المفردون. قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: المستهترون بذكر الله تعالى. وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً ـ ثم قال في وصفهم حكاية عن الله تعالى ـ: أقبل عليهم بوجهي أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه، ثم قال عز وجل: أوّل ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم»[1].

إذن صار واضحاً الفرق بين علوم الأنبياء والأولياء وبين علوم الحكماء والعلماء، وهو أن علوم الأولياء تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح على عالم الملكوت، وعلوم الحكماء تأتي من أبواب الحواس المفتوحة على عالم الملك.

وعجائب القلب وتردُّده بين عالمي الشهادة والغيب لا يمكن أن يُستقصى في علم المعاملة، فهذا مثال فقط يعرفك الفرق بين مدخل العلمين.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

ويوجد فرق أخرى بين عمل الأولياء وعمل الحكماء: وهو أن العلماء يعملون على اكتساب نفس العلوم وجلبها إلى القلب. أما الأولياء فيعملون على جلاء قلوبهم وتطهيرها وتزكيتها وتصفيتها فقط، حتى يتلألأ فيها تجلي الحق سبحانه.

فبعض السعادات أشرف من بعض، وتتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان، والمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم، حيث قال الله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾(١) وقد ورد في الخبر:

«إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل وبعضهم يعطى نوراً أصغر منه حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على قدر إبهام قدمه، فيضيء مرّة وينطفىء أخرى، فإذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا طفىء قام، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم، ومنهم من يمرّ كطرف العين ومنهم من يمرّ كالبرق ومنهم من يمرّ كالسحاب ومنهم من يمرّ كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمرّ كشد الفرس والذي أعطي نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تخرُّ منه يد وتعلّق أخرى وتخرّ رجل وتعلّق أخرى وتصيب جوانبه النار، قال: ولا يزال كذلك حتى يخلص»(٢).

فبهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان، فإيمان العوام نوره مثل نور السراج، وبعضهم نوره كنور الشمعة، وإيمان الصديقين نوره كنور النجوم والقمر، وإيمان الأنبياء كنور الشمس.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج٢، ص٤٧٨.

وكما أنه ينكشف من نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها، ولا ينكشف من نور السراج إلا زاوية ضيقة من البيت، فكذلك يتفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين.

ولذلك جاء في الخبر:

«إنه يقال: يوم القيامة أخرجوا من النار من في قلبه مثقال من الإيمان ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرّة»[١].

كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان، وأن هذه المقادير من الإيمان لا تمنع من دخول النار، ولو دخل لأمر بإخراجه، فإن من في قلبه مثقال ذرّة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢] تفضيلاً على المسلمين. والمراد به بالمؤمن العارف دون المقلّد.

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٣] فأراد تعالى ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم، وميّزهم عن الذين أوتوا العلم.

وبهذا يتضح أن تفاوت درجات أهل الجنان هو بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم. ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن، إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران.

---

(١) أخرجه مسلم: ج٢، ص١١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١١.

شواهد من الشرع على صحة طريق الإلهام

إن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير عن طريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري، فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم ير ذلك في نفسه قط فينبغي أن يؤمن به، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات.

ومن الشواهد؛ قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

فكل حكمة تظهر في القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلّم؛ فهو طريق الكشف والإلهام. وقد قال النبي ﷺ:

«من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم، ووفّقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار».

وقال الله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ و٣.

قيل يجعل له مخرجاً من الإشكالات والشبهات، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي يعلمه علماً من غير تعلم ويفطّنه من غير تجربة.

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾(١).

قيل: أي يجعل لهم نوراً يفرقون به بين الحق والباطل، ويخرجون به من الشبهات. ولذلك كان أكثر قول رسول الله ﷺ في دعائه سؤال النور حيث كان يقول:

«اللهم أعطني نوراً، وزدني نوراً، واجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً... وفي شعري وبشري ولحمي ودمي نوراً»(٢).

وسئل ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(٣) فقيل: ما هذا الشرح؟ فقال ﷺ:

«هو التوسعة، إن النور إذا قذف به في القلب، اتّسع له الصدر وانشرح»(٤).

وقال ﷺ لابن عباس: «اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل»(٥).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما عندنا شيء أسرّه النبي ﷺ إلينا إلا أن يؤتي الله عز وجل فهماً في كتابه» وليس هذا بالتعلم.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ج١، ص٣٧٣.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

(٤) الدر المنثور: ج٥، ص٣٢٥.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده: ج١، ص٣١٤.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾[1]، إنه الفهم في كتاب الله عز وجل.

وقال عز وجل في كتابه: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾[2]، فخصّ ما انكشف له باسم الفهم.

وقال النبي ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[3] وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[4] وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[5].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال:

«العلم علمان؛ فعلم باطن في القلوب فذلك هو النافع»[6].

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو؟ فقال: هو سرّ من سرّ الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبائه، لم يطلع عليه بشراً ولا ملكاً.

والقرآن مصرّح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف، وهذا علم من غير تعلم. قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٧٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١١٨.
(٦) أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر.
(٧) سورة يونس، الآية: ٦.

وقال عز وجل أيضاً:

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾[1].

فالعالِم الرباني هو الذي يأخذ علمه من ربّه بلا تحفظ ولا درس، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[2] مع أن كلّ علم من لدنه تعالى، ولكن بعضه بواسطة تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنياً، بل العلم اللّدنّي هو الذي ينفتح في سرّ القلب من غير سبب مألوف من الخارج.

ومن الأخبار النبوية أيضاً قوله ﷺ:

«ليس العلم بكثرة التعلم إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد الله أن يهديه»[3].

وقوله ﷺ:

«من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[4].

فهذه شواهد الشرع والعقل، ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر. وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضاً خارج عن الحصر، وقد ظهر على الأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام من ذلك كثير كما هو مذكور في كتاب الحجة من أصول الكافي للكليني رحمه الله، وما ظهر أيضاً على الصحابة والتابعين لهم عليهم السلام.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

(٣) بحار الأنوار: ج١، ص٦٨.

(٤) الجامع الصغير.

معنى الوسوسة وأسباب غلبتها

إن القلب مثاله مثال قبة لها أبواب تنصب إليها الأحوال من كل باب، ومثاله أيضاً مثال هدف تنصب إليه السهام من كل جانب، أو هو مثال مرآة منصوبة تمرّ عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها الصور واحدة بعد أخرى. أو مثال حوض تسحب إليه المياه من أنهار مختلفة.

وإن علة هذه الآثار المتجددة في القلب تأتي إما من الظاهر؛ فهي الحواس الخمس. وإما من الباطن؛ وهي الخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة في مزاج الإنسان.

فالإنسان إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل حصل أيضاً في القلب أثر منها.

وإن كفّ الإنسان نفسه عن تأثير الحواس فإن الخيالات الحاصلة في النفس تبقى، وهذه الخيالات تبدأ تنتقل من شيء إلى شيء آخر، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال. فالقلب في حالة من التغيّر والتأثر الدائم بهذه الأسباب الظاهرة والباطنة.

ومن الآثار الحاصلة في القلب؛ الخواطر. والمقصود بالخواطر ما يعرض فيه من الأفكار والأذكار، أي إدراكه للعلوم إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر، فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن

كان القلب غافلاً عنها. والخواطر هي المحركة للإرادة، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة.

فالخواطر هي مبدأ الأفعال، ثم تحرك الخواطر الرغبة والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء.

والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى:

١ ـ ما يدعو إلى الشرّ، أي ما يؤدي إلى العاقبة السيئة، وهي الخواطر المذمومة؛ وتسمى **وسواساً**.

٢ ـ ما يدعو إلى الخير، أي ما ينفع في الآخرة، وهي الخواطر المحمودة؛ وتسمى **إلهاماً**.

ثم نحن نعلم أن الخواطر أمور حادثة، وكل حادث لا بد له من سبب، وكلما اختلفت الحوادث دلت على اختلاف الأسباب. هذا ما عرف من سنة الله عز وجل في ترتيب المسببات على الأسباب. فإذا استنار حائط البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة. وكذلك لأنوار القلب وظلماته سببان مختلفان:

١ ـ فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً، واللطف الذي به يتهيأ القلب لقبول إلهام الملك يسمى توفيقاً.

٢ ـ وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً، والأمر الذي به يتهيأ لقبول وساوس الشيطان يسمى إغواءً وخذلاناً.

■ من هو الملك:

الملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى، شأنه إفاضة الخير، وإفادة العلم وكشف الحق، والوعد بالخير، والأمر بالمعروف، وقد خلقه الله وسخره لذلك.

■ من هو الشيطان:

الشيطان عبارة عن مخلوق شأنه الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف بالفقر عند الهمّ بالخير.

فالوسوسة في قبال الإلهام والشيطان في قبال الملك، والتوفيق في قبال الخذلان، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1] فالموجودات كلها متقابلة ومزدوجة إلا الله تعالى فإنه لا مقابل له، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها.

فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك، فقد قال رسول الله ﷺ:

«في القلب لمّتان لمّة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله. ولمّة من العدو إيعاد بالشرّ وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليتعوّذ بالله من الشيطان ثم تلا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾»[2].

ولتجاذب القلب بين هاتين اللّمتين قال رسول الله ﷺ:

«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»[3].

فالله تعالى إنما يفعل ما يفعله من خلال استسخار الملك والشيطان، فهما مسخران بقدرته في تقليب القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك في تقليب الأجسام. والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملائكة ولقبول آثار الشياطين بشكل متساوٍ دون أن يترجح أحدهما على الآخر.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

(٢) الترمذي في السنن: ج١١، ص١٠٩.

(٣) أخرجه الحاكم.

وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإنكباب على الشهوات، أو الإعراض عنها ومخالفتها.

فإذا اتبع الإنسان مقتضى الشهوة والغضب ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه، لأن الهوى مرعى الشيطان ومرتعه.

وإذا جاهد الشهوات ولم يسلّطها على نفسه وتشبّه بأخلاق الملائكة صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم.

ولما لم يكن القلب خالياً من شهوة وغضب وحرص وطمع وأمل إلى غير ذلك من الصفات البشرية المتشعبة عن الهوى فلا جرم أنه لم يخل قلب من جولان وساوس الشيطان، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا وله شيطان، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلا أن الله عز وجل أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»[1].

وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة، فمن أعانه الله على شهوته حتى صار لا يقوم إلا بما ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي فشهوته لا تدعوه إلى الشرّ، فالشيطان المتدرع بها لا يأمر إلا بالخير.

وكلما غلب على القلب ذكر الدنيا ومقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً للوسوسة. وكلما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم.

فالكرّ والفرّ بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيسكن ويستوطن ويكون اجتياز الثاني اختلاساً.

---

(١) أخرجه مسلم: ج٨، ص١٣٩.

وأكثر القلوب قد فتحها جنود الشيطان وملكوها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة وإلى طرح الآخرة، ومبدأ استيلائها اتباع الهوى.

ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب من قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى، إذ هو مطرح أثر الملائكة.

قال جرير بن عبيدة العدوي: شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري في الوسوسة فقال:

إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمرّ به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه. يعني أن القلب الخالي من الهوى لا يدخله الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[1]. فكل من اتبع الهوى فقد عبده ولم يعبد الله ولذلك تسلّط عليه الشيطان. لذا قال عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[2]، وهو إشارة إلى أن الهوى قد يصبح إلهاً معبوداً فيكون التابع له عبداً له لا لله عز وجل.

□ كيفية محو الوسوسة:

إنه لا يمحو وسوسة الشيطان عن القلب إلا ذكر آخر غير ما يوسوس به. لأنه إذا حضر في القلب ذكر شيء انعدم عنه ما كان فيه من قبل. ولكن بما أن كل شيء سوى ذكر الله وسوى ما يتعلق به من الجائز أن يكون مجالاً للشيطان، لذا كان ذكر الله سبحانه هو الذي يؤمن جانبه، والذي ليس للشيطان فيه مجال. فلا يعالج الشيء إلا بضده، وليس ضد جميع وساوس الشيطان إلا ذكر الله تعالى والاستعاذة به والتبري عن الحول والقوة. وهو معنى قولك: أعوذ بالله من الشيطان

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

الرجيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

وهذا لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى. وإنما الشيطان يطوف بقلوبهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة.

لذا قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[1].

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾: إن الشيطان منبسط على قلب الإنسان، فإذا ذكرِ الله سبحانه، خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على القلب.

فالتطارد بين ذكر الله ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام، وبين الليل والنهار، ولتطاردهما قال الله سبحانه: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾[2] وفي الحديث:

«إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس وإن نسي الله التقم قلبه»[3].

وفي حديث آخر:

«إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال: بأبي وجه لا يفلح».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان.

بعض طرق الشيطان في الوسوسة

لأن الشهوات ممتزجة بلحم الآدمي ودمه لذا فسلطنة الشيطان أيضاً سارية في لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه. ولذلك قال النبي ﷺ:

«إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع»(١).

ذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات، وهو يسعى لتطويق القلب بالشهوات وقد قال تعالى إخباراً عنه:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾(٢).

وقال رسول الله ﷺ:

«إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق، فقعد له بطريق الإسلام فقال له: أتسلم وتترك دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك ونساءك؟ فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد وهو تلف النفس والمال

---

(١) مسند أحمد: ج٣، ص١٥٦.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦ و١٧.

فتقاتل وتقتل، فتنكح نساؤك ويقسم مالك؟ فعصاه فجاهد. قال رسول اللهﷺ: فمن فعل ذلك فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنّة»[1].

وقد عرّف الله تعالى عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن ويحترز عنه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2]. وقال عز وجل:

﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠﴾[3].

فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه، فيسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه، وسلاح الشيطان الهوى والشهوات.

وينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى:

١ ـ ما يعلم قطعاً أنه داع إلى الشرّ فلا يخفى كونه وسوسة.

٢ ـ ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاماً.

٣ ـ ما يتردد فيه فلا يدري أنه لمّة الملك أو لمّة الشيطان، فإن من مكائد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير، والتمييز بينها في هذه الحالة غامض، وأكثر العباد به يهلكون. فالشيطان لا يقدر على دعوتهم إلى الشرّ الصريح، لذا يصوّر لهم الشرّ بصورة الخير. فيقول للعالم بطريق الوعظ مثلاً: أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل، هلكى من الغفلة، قد أشرفوا على النار. أمالك رحمة على عباد الله عز وجل تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك، وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر بنعمته وتتعرض لسخطه وتسكت

---

(١) الدر المنثور: ج٣، ص٧٣.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٣) سورة يس، الآية: ٦٠.

عن إشاعة العلم ودعوة خلق الله سبحانه إلى الصراط المستقيم. فلا يزال يكرر ذلك عليه ويستجرّه بلطائف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنّع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له: إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك عن قلوبهم ولم يهتدوا إلى الحق. فلا يزال يكرر عليه ويؤكده في نفسه حتى تترسخ فيه شوائب الرياء والجاه والتعزّز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار، فيستدرج هذا المسكين إلى الهلاك، فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير، وإنما قصده الجاه والقبول بنظر الخلق فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان، وهو في الحقيقة عند الله ممن قال فيهم رسول الله ﷺ:

«إن الله ليؤيد هذا الدّين بأقوام لا خلاق لهم»[1].

و «إن الله ليؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر»[2].

ولذلك روي أن إبليس تمثل لعيسى عليه السلام فقال له: قل لا إله إلا الله. فقال عليه السلام: كلمة حق ولكن لا أقولها بقولك. لأن له - إبليس - تحت الخبر أيضاً تلبيسات، وتلبيسات الشيطان من هذا النوع لا تتناهى، وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة.

فحق على العبد أن يقف إذاً عند كل خاطر يخطر له ليعلم أنه هل هو لمّة الملك أو لمّة الشيطان. وأن يمعن النظر فيه بنور البصيرة لا بهوى الطبع، فلا يطلع عليه إلا بنور التقوى وغزارة العلم. كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه الطبراني وأحمد.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ج٢، ص٣٠٩.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾.

أما من لم يروّض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان لتلبيسه بمتابعة الهوى. فيكثر غلطه ويتعجّل في هلاكه وهو لا يشعر. وفي شأنهم قال الله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[1].

قيل إنها أعمال ظنوها حسنات فإذا هي سيئات. فمن أغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكائد الشيطان، وهو مع ذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجرّ إليهم الوساوس، وتسلط عليهم الشياطين، وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه.

فلا منجى من كثرة الوسواس إلا بسد أبواب الخواطر، وهي الشهوات وعلائق الدنيا. ولا يمكن دفع هذه الخواطر والتخيلات إلا من خلال إشغال القلب بذكر الله تعالى. لكن الشيطان لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى، لذا كان لا بد من مجاهدته، وهذه المجاهدة لا آخر لها إلا الموت. إذاً لا يتخلص أحدٌ من الشيطان ما دام حياً. لذا لا يستغني الإنسان قط عن الجهاد ما دام يجري الدم في بدنه. فإنه ما دام حياً فأبواب الشياطين وهي الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها؛ مفتوحة على قلبه لا تنغلق.

وأهل التقوى فلا يتعذر عليهم ترصّد أبواب الشيطان الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة.

وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة، والمشكلة أن أبواب الشيطان

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

المفتوحة على القلب كثيرة، وباب الملائكة باب واحد، وقد التبس هذا الباب الواحد بذلك الكثير. ومثاله مثال المسافر الذي يسعى في بادية كثيرة الطرق، غامضة المسالك، وفي ليلة مظلمة، فلا يكاد يفلح في استكشاف الطريق الصحيح إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة.

فالعين البصيرة ههنا هو القلب المصفّى بالتقوى والشمس المشرقة، هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله ﷺ. فبهما يهتدي إلى غوامض الطريق. وقد قيل:

«خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً فقال: هذا سبيل الله ثم خطّ خطوطاً عن يمين الخط وعن شماله، فقال: هذه سبل الشيطان، على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾»[1].

وقد ذكرنا لحد الآن مثالاً للطريق الغامض من طرق إضلال الشيطان ووسوسته، وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة، وسنذكر الآن مثالاً لطريقه الواضح الذي لا يخفى. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب، فأتي بها الراهب، فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها، فكانت عنده ليعالجها. فأتاه الشيطان فوسوس إليه وزين له مقاربتها فلم يزل به حتى واقعها فحبلت منه. فوسوس إليه فقال: الآن تفتضح يأتيك أهلها

---

(١) الدر المنثور: ج٣، ص٥٥.

فاقتلها، فإن أتاك أهلها فقل ماتت. فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها. فأتاه أهلها فسألوه عنها، فقال: ماتت.

فألقى إليهم الشيطان أنها مدفونة عنده، ففتشوا فوجدوها مقتولة فأخذوه. فأتاه الشيطان فقال له: أنا الذي أخذتها وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها فأطعني تنج وأخلصك منهم، فقال الراهب: بماذا؟ فقال إبليس: اسجد لي سجدتين، فسجد له سجدتين. فقال له الشيطان: إني بريء منك، وهو الذي قال الله تعالى فيه:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ﴾(١)»(٢).

فانظر الآن إلى حيلته ودفعه للراهب إلى ارتكاب الكبائر. وكل ذلك من خلال طاعته له بقبول الجارية لمعالجتها، وهو أمر هيّن وربما يظن صاحبه أنه عمل خير وهو حسن، فيحسن ذلك في قلبه بخفيِّ الهوى فيقدم عليه إلى أن يخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره فيجرّه من معصية إلى أخرى بحيث لا يجد عنها محيصاً. فنعوذ بالله من هذه الفتنة، وإليه الإشارة بقولهﷺ:

«من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»(٣).

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٦.

(٢) الدر المنثور: ج٦، ص١٩٩.

(٣) رواه البخاري، والشريف الرضي في المجازات النبوية.

مداخل الشيطان إلى القلب

إن القلب مثاله مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ويملكه ويستولي عليه. ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه. كما لا يقدر على حراسة أبواب الحصن من العدو من لا يعرف أبوابه أصلاً.

إن حماية القلب من مفاسد الشيطان واجبة وهي فرض عين على كل عبد مكلف. وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، لذا صارت معرفة مداخل الشيطان والأبواب التي ينفذ منها واجبة أيضاً. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة، ولكن نشير إلى الأبواب العظيمة منها. فمن أبواب الشيطان العظيمة:

١ ـ الحرص والحسد:

إن العبد كلما كان حريصاً على شيء أعماه حرصه وأصمه، حتى قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»[١]، ونور البصيرة هو الذي يكشف عن مداخل الشيطان ويعرفها؛ فإذا غطاه الحرص أو الحسد لم يبصر فيجد الشيطان فرصته.

---

(١) الدر المنثور: ج٣، ص٣٢٣.

[روي أن نوحاً عليه السلام لما ركب البحر وحمل في السفينة من كل زوجين اثنين كما أمر، فرأى في السفينة شيخاً لم يعرفه فقال له نوح عليه السلام: ما أدخلك؟ قال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك. قال نوح عليه السلام: أخرج منها يا عدوّ الله فإنك رجيم. قال له إبليس: خمس أهلك بهنّ الناس، وسأحدثك منهنّ بثلاث ولا أحدثك بالثنتين، فأوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أنه لا حاجة بك إلى الثلاث؛ مُرهُ فليحدثك بالثنتين فقال عليه السلام: ما الثنتان؟ فقال إبليس: هما اللتان لا تكذبانني، هما اللتان لا تخلفانني، بهما أهلك الناس؛ الحرص والحسد، بالحسد لُعنت وجعلت شيطاناً رجيماً، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها، فأصبت حاجتي منه بالحرص][1].

٢ ـ الغضب والشهوة:

فإن الغضب غول العقل، فإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان، وكلما غضب الإنسان لعب به الشيطان كما يلعب الصبي بالكرة.

قد روي أن إبليس لقي موسى عليه السلام فقال:

«يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليماً. وأنا من خلق الله أذنبت ذنباً وأريد التوبة فاشفع لي إلى ربي أن يتوب عليّ. قال موسى فدعا موسى عليه السلام ربه عز وجل، فقال:

يا موسى قد قضيت حاجتك فَمُرهُ أن يسجد لقبر آدم، فلقي موسى عليه السلام إبليس فقال له: أمرت أن تسجد لقبر آدم ليتاب عليك، فاستكبر وغضب وقال: لم أسجد له

(١) الدر المنثور: ج٣، ص٣٢٣.

حيًّا فكيف أسجد له ميّتاً، ثم قال إبليس: يا موسى إن لك عليّ حقاً بما شفعت لي إلى ربك فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهنّ:

- اذكرني حين تغضب فإن روحي في قلبك وعيني في عينك، وأجري منك مجرى الدم.

- واذكرني حين تلقى الزحف؛ فإني آتي ولد آدم حين يلقى الزحف فأذكره ولده وزوجته وأهله حتى يولّي.

- وإياك أن تجالس امرأة ليست لك بذات محرم فإني رسولها إليك ورسولك إليها»(١).

في هذا الحديث إشارة إلى كل من الشهوة والغضب والحرص.

وقال بعض الأنبياء عليهم السلام لإبليس: بأي شيء تغلب ابن آدم؟ قال: آخذه عند الغضب وعند الهوى.

وظهر إبليس لراهب فقال له: أي أخلاق بني آدم أعون لك؟ قال: الحدّة. إن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقيل إن الشيطان يقول:

كيف يغلبني ابن آدم؟ وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه. وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه.

٣ ـ التزيّن بالثياب والأثاث والدار:

إن الشيطان إذا رأى حبّ التزيّن بالثياب والأثاث والدار غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ فلا يزال الشيطان يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها ويدعوه إلى التزيّن بالثياب

---

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٦٣٤.

والدواب ويستسخره فيها طول عمره، حتى إذا أوقعه في شباكه استغنى عن معاودته لأن ما وقع فيه يجرّه إلى البعض الآخر ولا يزال يجره من موقع إلى موقع حتى يساق إليه أجله فيموت وهو على سبيل الشيطان واتباع الهوى، وفي هذه الحالة يخشى عليه من سوء الخاتمة بالكفر نعوذ بالله تعالى.

٤ ـ الشبع من الطعام:

من أبواب الشيطان العظيمة الشبع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً، فإن الشبع يقوي الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان.

روي أن إبليس ظهر ليحيى عليه السلام فرأى عليه مغاليق من كل شيء فقال له يحيى عليه السلام:

«يا إبليس ما هذه المغاليق؟ قال: هذه الشهوات التي أصبت بها بني آدم. قال فهل لي فيها شيء؟ قال إبليس ربما شبعت فثقّلناك عن الصلاة وعن الذكر. قال عليه السلام: هل غير ذلك. قال: لا. فقال يحيى عليه السلام: الله عليّ أن لا أملأ بطني من طعام أبداً. فقال إبليس: ولله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً»[1].

٥ ـ الطمع في الناس:

إن الطمع إذا غلب على القلب فلم يزل الشيطان يحسن التصنّع والتزيّن لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده. فلا يزال الطامع يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه [المطموع فيه] ويدخل كل مدخل في الوصول إلى ذلك، وأقل أحواله الثناء عليه

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤، ص٦٢٠.

بما ليس فيه والمداهنة معه بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦ ـ العجلة:

قال رسول الله ﷺ: [العجلة من الشيطان والتأني من الله عز وجل][(١)].

وقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[(٢)].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[(٣)].

وقال عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[(٤)] هذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد البصيرة والمعرفة. والبصيرة تحتاج إلى التأمل والمهلة، والعجلة تمنع من ذلك. فعند الاستعجال يروّج الشيطان شرّه من حيث لا يدري الإنسان.

روي أنه لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالت: أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها، قال: هذا حادث قد حدث مكانكم، فطار حتى جال خافقي الأرض ولم يجد شيئاً، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد، وإذا الملائكة قد حفّت حوله فرجع إليهم فقال: إن نبياً قد ولد البارحة؛ ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا بحضرتها إلا هذا، فآيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة.

٧ ـ الأموال والدراهم:

إن الدنانير وسائر أصناف الأموال من الأثاث والدواب والعقار، وكل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقرُّ الشيطان.

---

(١) أخرجه الترمذي.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١١.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٤.

إن من معه قوته وكفاف يومه وكان راضياً فهو فارغ القلب عن الإشتغال بما يزيد عن حاجته.

أما من وجد مائة دينار مثلاً ولم يكن قانعاً انبعثت من قلبه مائة شهوة تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار، فلم تعد تكفيه المائة بل صار محتاجاً إلى تسعمائة أخرى، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً، ولكنه صار الآن محتاجاً إلى تسعمائة ليشتري بها داراً ويعمرها ويشتري جارية ويشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة. وكل واحدة من هذه الأمور تستدعي أشياء أخرى تليق بها وذلك إلى ما لا آخر له ولا حد، فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم ولا آخر لها سواه.

روي: أنه لما بعث النبيﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو؟ فانطلقوا، ثم جاؤوه وقالوا: ما ندري. قال إبليس: أنا آتيكم بالخبر. ذهب وجاء، وقال: قد بعث محمدﷺ، فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبيﷺ فينصرفون خائبين وهم يقولون: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء نصيب منهم، ثم يقومون إلى صلاتهم فيُمحى ذلك.

قال إبليس: رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فهناك تصيبون حاجتكم منهم(١).

وروي أن عيسى عليه السلام توسد حجراً، فمرّ به إبليس فقال: يا عيسى رغبت في الدنيا، فأخذه من تحت رأسه ورمى به، وقال: هذا لك مع الدنيا.

٨ ـ البخل وخوف الفقر:

إن الخوف من الفقر هو الذي يمنع من الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الإدخار والكنز. ومعلوم أن العذاب الأليم هو مصير الكانزين للأموال كما أخبر به القرآن الكريم.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان.

قيل إن الشيطان يقول: ما غلبني عليه آدم فلن يغلبني على ثلاث: أن آمره بأخذ المال من غير حقّه، وإنفاقه في غير حقّه، ومنعه من حقّه.

وقيل ليس للشيطان سلاح على الإنسان مثل خوف الفقر. فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل، ومنع من الحق، وتكلم بالهوى، وظن بربّه ظن السوء. ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، والأسواق هي معشّش الشيطان.

قال رسول الله ﷺ:

«إن إبليس لما أنزل إلى الأرض قال: يا ربّ أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيماً فاجعل لي بيتاً، قال الحمام. قال فاجعل لي مجلساً، قال: الأسواق ومجامع الطرق، قال: فاجعل لي طعاماً، قال: ما لم يذكر اسم الله عليه، قال: اجعل لي شراباً، قال: كل مسكر، قال: اجعل لي مؤذّناً، قال: المزامير، قال: اجعل لي قرآناً، قال: الشعر، قال: اجعل لي كتاباً، قال: الوشم، قال: اجعل لي حديثاً، قال: الكذب، قال: اجعل ليس مصائد، قال: النساء»[1].

٩ ـ التعصّب للمذاهب:

إن التعصب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الإزدراء والاستحقار مما يهلك الفساق والعباد جميعاً.

فالطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصانهم صفة مجبولة في طبع الإنسان وهي من الصفات السبعية. فإذا خيّل الشيطان للإنسان أن ذلك هو الحق، وكان موافقاً لطبعه، غلبت حلاوته على قلبه، فاشتغل به بكل

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

همّته، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشيطان.

ترى الواحد منهم يتعصّب لعلي عليه السلام وكان من زهد علي عليه السلام وسيرته أنه لبس في خلافته ثوباً اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمّين إلى الرُسُغ[1]، وترى هذا الفاسق لابساً الثياب والحرير ومتجملاً بأموال اكتسبها من الحرام، وهو يدعي حب علي عليه السلام، وهو من أوّل خصمائه يوم القيامة.

ثم الشيطان يخيّل إليهم أن من مات على حب أمير المؤمنين علي عليه السلام، فالنار لا تحوم حوله. ولكن ما ينبغي أن نعرفه أن كل من ادّعى حب إمام وهو لا يسير بسيرته، فذلك الإمام سيكون خصمه؛ حيث سيقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، الحديث باللسان إنما كان لأجل العمل لا لأجل الهذيان، فما لك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مسلكي ومذهبي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله، ثم ادّعيت مذهبي كذباً.

وقد ورد عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«قال لي: يا جابر أيكتفي من انتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشّع والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والبرّ بالوالدين، والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلا من خيرٍ،

---

(١) الرُسُغ: المفصل ما بين الساعد والكف.

وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء.

قال جابر: يا بن رسول الله؛ ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة! فقال عليه السلام: يا جابر لا تذهبنّ بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحبّ علياً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعالاً. فلو قال: إني أحب رسول الله صلى الله عليه وآله فرسول الله صلى الله عليه وآله خيرٌ من عليّ ثم لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبّه إياه شيئاً، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله.

ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله وأكرمهم عليه تعالى أتقاهم وأعملهم بطاعته.

يا جابر: والله ما يتقرّب إلى الله تعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحد من حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليٌّ ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع»[1].

وقال أبو الصّباح الكناني لأبي عبد الله عليه السلام ما نلقى من الناس فيك، فقال عليه السلام: وما الذي تلقى من الناس فيّ؟

فقال: لا يزال يكون بيننا وبين الرجل الكلام فيقول: جعفري خبيث. فقال عليه السلام: يعيّركم الناس بي؟ فقال أبو الصباح: نعم.

فقال عليه السلام: فما أقلّ والله من يتبع جعفراً منكم، إن أصحابي من اشتد ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، هؤلاء هم أصحابي»[2].

وعن أبي الحسن الأول عليه السلام قال:

---

(١) الكافي: ج٢، ص٧٤.

(٢) الكافي: ج٢، ص٧٧.

«كثيراً ما كنت أسمع أبي يقول: ليس من شيعتنا من لا يتحدث المخدّرات بوَرَعِهِ في خدورهنّ، وليس من أوليائنا من في قرية فيها عشرة آلاف رجل فيهم خلق أورع منه»[1].

فهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم، وقد سلّمت المنابر لأقوام قلّ من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتدّ إلى الاستتباع حرصهم، ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب.

قيل: إن إبليس قال: سوّلت لأمة محمدﷺ المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار، فسوّلت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء. وقد صدق الملعون، فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجرّ إلى المعاصي.

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات.

وقد قيل: قعد قوم يذكرون الله، فأتاهم الشيطان ليقيمهم من مجلسهم فيفرّق بينهم فلم يستطع. فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا، فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون وليس إياهم يريد، فقام الذين يذكرون الله تعالى واشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم وذلك هو مراد الشيطان منهم.

١٠ ـ حمل العامة على التفكر في ذات الله:

من أبواب الشيطان أيضاً حمل العوام والذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله وصفاته، وفي أمور لا يبلغها

---

(١) الكافي: ج٢، ص٧٩.

حدّ عقولهم، حتى يشككهم إبليس اللعين في أصل الدين أو يخيّل إليهم في الله خيالاً يتعالى الله عنه، فيصبحوا به كفاراً ومبتدعين، وهم فرحون مسروورون بما وقع في صدورهم من العلم ظناً منهم أنها المعرفة والبصيرة، وأنه قد انكشف لهم ذلك بذكائهم وعقولهم. إن أشد الناس حماقة أشدهم اعتقاداً وثقة بعقله، وأثبت الناس عقلاً أشدهم ظناً وإتهاماً لنفسه، وأحرصهم على السؤال من العلماء.

روي أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خَلَقك؟ فيقول: الله تبارك وتعالى، فيقول: فمن خلق الله تعالى؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله تعالى وبرسله، فإن ذلك يذهب عنه»(١).

فالنبي ﷺ لم يأمر في علاج هذا الوسواس بالبحث، فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء. وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعباداتهم وبمعايشهم ويتركوا العلم إلى العلماء. فالعامي لو زنى أو سرق كان خيراً له من أن يتكلم في العلم، فإنه من تكلم من غير إتقان العلم في الله وفي دينه، وقع في الكفر من حيث لا يدري، كمن يركب لجّة البحر وهو لا يعرف السباحة.

ومكائد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا حصر لها، وإنما قصدنا بما أوردناه المثال فقط.

١١ ـ سوء الظن بالمسلمين:

من أبواب الشيطان أيضاً سوء الظن بالمسلمين، ولذلك قال الله تعالى:

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا: في مكائد الشيطان.

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1].

ومن حكم على غيره بالظن، دفعه الشيطان إلى غيبته، فيقصّر في القيام بحقوقه، أو يتوانى عن إكرامه، أو ينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه، وكل ذلك من المهلكات. ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للغير بالتهم. فقال النبي ﷺ: «اتقوا مواضع التهم»[2].

لذا يجب الاحتراز من الظنون والتهم، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشرّ. فإذا رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب، فاعلم أن باطنه خبيث، وأن ذلك الذي يترشح منه ما هو إلا خبثه، وإنما يرى غيره من حيث هو.

فالمؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب. والمؤمن سليم القلب في حق كافة الخلق.

فهذه إذاً بعض مداخل الشيطان إلى القلب، ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه، وفي هذا القدر ما ينبّه على غيره. فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح للشيطان، ومدخل من مداخله.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) الموضوعات الكبيرة، ص٢٤.

العلاج الذي يدفع وساوس الشيطان

إن العلاج لدفع وساوس الشيطان يكمن في سد المداخل والأبواب التي ينفذ منها، وتطهير القلب من الصفات المذمومة.

فإذا قلعت من القلب أصول هذه الصفات، كان للشيطان عندئذ بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار. وذكر الله تعالى في هذه الحالة هو الذي يمنع الشيطان من الاجتياز.

لأن حقيقة الذكر لا تتمكن في القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة. وإلا سيكون الذكر حديث النفس ولا سلطان له على القلب، فلا يدفع إذاً سلطان الشيطان.

ولذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾[1].

فخص الله تعالى المتقين فقط بهذه الخاصية، ومثل الشيطان مثل الكلب الجائع الذي يقرب منك ما دام بين يديك لحم وخبز، وإن لم يكن بين يديك شيء من ذلك ينزجر عنك.

فالقلب الخالي من قوت الشيطان ينزجر عنه هذا اللعين بمجرد

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

الذكر. أما إذا غلبت الشهوة على القلب اندفع الذكر فيستقر الشيطان في سويداء القلب. أما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة، فإن الشيطان يطرقها لا للشهوات، بل لخلوِّها عن الذكر بسبب الغفلة. فإذا عاد المتقي إلى الذكر خنس الشيطان. ودليل ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾[1].

وسائر الأخبار والروايات الواردة في الذكر.

أما غير المتقين فمهما طمعوا في أن يندفع عنهم الشيطان بمجرد الذكر كما يندفع عن المتقين كان ذلك محالاً. وكان كمن يطمع في أن يشرب الدواء قبل الاحتماء وتخلية المعدة.

فالذكر دواء والتقوى احتماء يخلي القلب من الشهوات. فإذا نزل الذكر على قلب فارغ من الشهوات اندفع الشيطان عنه. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾[2].

وقال تعالى أيضاً:

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

فلا تتوهم إذاً أن الذكر لوحده كافٍ لدفع وساوس الشيطان، وإذا ظننت مثل هذا الظن، فانظر إلى نفسك فليس الخبر كالمعاينة، وتأمل في

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.
(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤.

منتهى ذكرك وعبادتك وصلاتك، فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يتجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساباتها، وكيف يمرّ بك في أودية الدنيا ومهالكها حتى أنك لا تتذكر ما نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك، ولا تزدحم الشياطين على قلبك إلا إذا صليت، والصلاة محك القلوب فيها تظهر مساوئها ومحاسنها.

فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا، فإن شئت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر، عندها يفرّ الشيطان عنك.

ما يؤاخذ به الإنسان من وساوس القلوب

إن معرفة ما يؤاخذ به الإنسان من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصدها، وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به من الأمور الغامضة، قد ورد فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس الطريق فيها إلا على العلماء بالشرع.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«عفي عن أمتي ما حدثت به نفوسها»[1].

وعنه ﷺ قال:

«يقول الله تعالى للحفظة: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإن هم بحسنة ولم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً»[2].

وفي لفظ آخر ورد:

«من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف،

---

(١) صحيح مسلم، ج١، ص٨١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت عليه سيئة»[1].

وفي لفظ آخر:

«وإذا تحدّث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن الله تعالى جعل لآدم في ذريته من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بحسنة وعملها كتبت له عشراً، ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه، ومن عمل بها كتبت عليه سيئة»[3].

أما ما يدل على المؤاخذة، فقوله سبحانه:

﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري: ج٨، ص١٢٨.

(٢) أخرجه مسلم: ج١، ص٨٢.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٢٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

وقوله عز وجل:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[2].

إن الحق في هذه المسألة لا يعرف ما لم يحط بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح.

١ ـ فنقول إن أوّل ما يرد على القلب الخاطر، كما لو خطر له مثلاً صورة امرأة، وأنها وراء ظهره بحيث إنه لو التفت إليها لرآها. وهذا ما يسمّى بحديث النفس.

٢ ـ وثاني ما يرد هو هيجان الرغبة إلى النظر، وهو حركة الشهوة التي في الطبع، وهي تتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع.

٣ ـ الثالث هو حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل، أي ينبغي أن ينظر إليه. فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية إلا بعد اندفاع الصوارف. فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات، وإعدام هذه الصوارف والشواغل قد يكون بمجرد التأمل، وهو على كل حال حكم من جهة العقل، ويسمّى هذا اعتقاداً، ويتبع الخاطر.

٤ ـ الميل الرابع؛ هو تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه، وهذا ما نسميه همّاً بالفعل ونية، وقصداً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.

وهذه الهمّة قد يكون لها مبدأ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكدت هذه الهمة وترسخت حتى صارت إرادة مجزومة.

وإذا صارت الإرادة أمراً جازماً فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل، وربما يغفل بسبب عارض ما فلا يعمل بها ولا يلتفت إليها، وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل.

فههنا أربعة أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة وهي:

١ ـ الخاطر؛ وهو حديث النفس.

٢ ـ الميل.

٣ ـ الاعتقاد.

٤ ـ الهمّ.

أما الخاطر فلا يؤاخذ به الإنسان لأنه لا يدخل تحت الاختيار، وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما أيضاً لا يدخلان تحت الاختيار، وهما المرادان بقوله ﷺ:

«عُفي عن أُمّتي ما حدّثت به نفوسها».

فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل. أما العزم والهمّ فلا يسمى «حديث النفس». بل حديث النفس كما روي عن عثمان بن مظعون حيث قال:

«يا رسول الله إن نفسي تحدّثني أن أطلق خولة، قال ﷺ: مهلاً إن سنتي النكاح. قال: نفسي تحدثني أن أجبّ[1] نفسي، قال ﷺ: مهلاً خصاء أمتي دؤب الصيام. قال: نفسي تحدثني أن أترهّب، قال ﷺ:

(١) أجب: من جبّ أي غلب.

مهلاً رهبانية أمتي الجهاد والحج. قال: نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قالﷺ: مهلاً فإني أحبّه ولو أصبته كل يوم لأكلته، ولو سألت الله لأطعمنيه».

فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس، ولذلك شاور فيها رسول اللهﷺ، إذ لم يكن معها عزم وهم بالفعل.

وأما الثالث وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل، فهذا مردد بين أن يكون اضطراراً واختياراً، والأحوال تختلف فيه. فالإختياري منه يؤاخذ به. والإضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الرابع؛ وهو الهمّ بالفعل، فإنه يؤاخذ به إن فعله، أما لو تركه فلا يؤاخذ به. فلو تركه خوفاً من الله مثلاً وندم على ما همّ القيام به كتبت له حسنة الامتناع عن الهمّ بسيئة ما ومجاهدة النفس يعد حسنة.

والهمّ بالعمل على وفق الطبع لا يدل على تمام الغفلة عن الله، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة. فجدّه في مخالفة الطبع وهو العمل لله سبحانه أشد من جدِّه في موافقة الشيطان من خلال موافقة الطبع، لذا تكتب له حسنة لأنه رجّح جهده في الامتناع وهمّه به على همّه بالفعل.

وإذا حال دون الفعل عائق ما، أو تركه لعذر لا لخوف من الله تعالى كتبت عليه سيئة، لأن همّه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل ما ورد عن رسول اللهﷺ أنه قال:

«قالت الملائكة: ربّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر، فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها عليه بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من أجلي»[١].

---

(١) أخرجه مسلم: ج١ ص٨٢.

فقوله «لم يعملها» أراد به تركها لله، فأما إذا عزم على فاحشة وتعذّرت عليه بسبب أو لغفلته فكيف تكتب له حسنة، وقد قال رسول الله ﷺ:

«إنما يحشر الناس على نياتهم»(١).

ونحن نعلم أن من عزم ليلاً على أن يصبح ويقتل مسلماً أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة؛ مات مصراً ويحشر على نيته التي مات عليها. والدليل القاطع على ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه»(٢).

وهذا نص في أنه صار من أهل النار بمجرد الإرادة مع أنه مظلوم فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهمّ.

بل كل ما دخل تحت اختيار العبد فهو مأخوذ به إلا أن يكفّره بحسنة. ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك تكتب حسنة، أما فوات المراد بعائق فليس بحسنة، وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار، والمؤاخذة به تكليف بما لا يطاق.

ولذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾(٣) جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ وقالوا: كلفنا ما لا نطيق، إنّ أحدنا ليتحدّث نفسه بما لا يحب أن يثبت في

(١) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤٢٣٩.
(٢) أخرجه ابن ماجة تحت رقم: ٣٩٦٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

قلبه، ثم يحاسب بذلك؟ فقال رسول الله ﷺ:

«لعلكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا، فأنزل الله تعالى الفرج بقوله عز وجل:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾»(1).

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في حديث طويل أنه قال:

«إن هذه الآية عرضت على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها وقبلها رسول الله ﷺ وعرضها على أمته فقبلوها، فلما رأى الله عز وجل منهم القبول علم أنهم لا يطيقونها... قال: أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتها على الأمم فأبوا أن يقبلوها وقبلتها أمتك، فحقّ عليّ أن أرفعها عن أمتك، وقال:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾».

فظهر مما تقدم أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به. وهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس. فمن يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس، ولم يفرّق بين هذه الأقسام الأربعة التي ذكرناها فلا بد وأن يقع في الخطأ. وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلوب؛ وكل من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها من أعمال القلب، بل إن السمع والبصر والفؤاد وكل أولئك كان عنه مسؤولاً، أي ما كان داخلاً تحت الاختيار. أما لو وقع البصر بغير

---

(1) أخرجه مسلم: ج1، ص80.

اختيار على محرم لم يؤاخذ بها، فإن اتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذاً بها لأنه وقع الفعل باختياره.

وكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل. قال رسول الله ﷺ: «التقوى ههنا» - وأشار إلى القلب[1] - وقال الله عز وجل:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[2].

والتقوى مكانها القلب.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) سورة الحج، الآية ٣٧.

هل يمكن أن تنقطع وساوس الشيطان بالكامل؟

إن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها وعجائبها اختلفوا في أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا؟

فاختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق:

١ ـ فرقة قالت: إن الوسوسة تنقطع بذكر الله تعالى لأن النبي ﷺ قال: «إذا ذكر الله خنس الشيطان» والخنوس هو السكوت، فكأنه يسكت.

٢ ـ فرقة ثانية قالت: لا ينعدم أصل الوسوسة ولكن يجري في القلب ولا يكون لها أثر لأن القلب إذا صار مستوعباً بالذكر صار محجوباً عن التأثر بالوسوسة، كالمشغول بهمٍ ما فإنه قد يكلّم فلا يفهم وإن كان الصوت يمرّ على سمعه.

٣ ـ فرقة ثالثة قالت: لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضاً ولكن تسقط غلبتها على القلب وكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف.

٤ ـ فرقة رابعة قالت: تنعدم الوسوسة عند الذكر في لحظة، وينعدم الذكر بالوسوسة في لحظة، ويتعاقبان في أزمنة متقاربة: فظن لتقاربها أنها متساوقة. وهو كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنها إذا أديرت بسرعة رأيت النقط دوائر لسرعة تواصلها بالحركة.

واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر، ولا وجه لتفسير ذلك إلا ما ذكرناه.

٥ ـ فرقة خامسة قالت: إن الوسوسة والذكر يتساوقان في القلب على الدوام تساوقاً لا ينقطع. وكما أن الإنسان قد يرى في حالة واحدة بعينه شيئين فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين، وقد قال رسول الله ﷺ:

«ما من عبد إلا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه»[١].

والصحيح أن كل هذه المذاهب صحيحة، ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوساوس، وإنما نظرت كل فرقة إلى صنف واحد من الوساوس فأخبرت عنه، والوساوس ثلاثة أصناف:

١ ـ الصنف الأول: الوسوسة لأجل تلبيس الحق:

فإن الشيطان قد يلبّس الحق فيقول للإنسان: لا تترك التنعم واللذات فإن العمر طويل والصبر على الشهوات طول العمر ألمه عظيم.

ففي هذه الحالة إذا تذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه، وقال في نفسه: صحيح أن الصبر عن الشهوات شديد، ولكن الصبر على النار أشد منه. فإذا ذكر العبد وعد الله ووعيده وجدّد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب. فهو لا يستطيع أن يقول: كلا ليست النار أشد من الصبر على المعاصي، كما لا يمكنه أن يقول: المعصية لا تفضي إلى النار.

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي.

وقد يوسوس الشيطان إلى الإنسان بالعجب في علمه وعمله، فيقول له: أي عبد يعرف الله كما تعرفه، ويعبده كما تعبده، فما أعظم مكانك عند الله. وفي هذه الحالة ينبغي أن يتذكر العبد أنّ معرفته وقدرته وقلبه وأعضاءه التي بها علمه وعمله كلها من خلق الله، فهو الذي خلقها وأوجدها فمن أين له أن يعجب بها، عند ذلك يخنس الشيطان. إذ لا يمكنه أن يقول: ليست هذه الأمور من الله.

فهذا نوع من الوسوسة ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة.

٢ ـ الصنف الثاني: الوسوسة التي تحرك الشهوة:

في هذا الصنف تكون الوساوس لأجل تحريك الشهوة وتهييجها. وهذا ينقسم إلى:

١ ـ ما يعرف العبد يقيناً أنه معصية.

٢ ـ ما يظن العبد أنه معصية.

فإن علم يقيناً خنس الشيطان عن التهييج الذي يؤثر في التحريك، ولم يخنس عن التهييج.

وإن كان مظنوناً بحيث يحتاج إلى مجاهدة لدفعه، فالوسوسة في هذه الحالة تكون موجودة لكنها مدفوعة وغير غالبة.

٣ ـ الصنف الثالث: الوسوسة بالخواطر:

هذا الصنف من الوسوسة يكون من خلال الخواطر التي يخطرها الشيطان في القلب، كتذكر الأحوال الغائبة أثناء الدخول في الصلاة، والبدء بالتفكر في أمور هي خارج الصلاة وأذكار الصلاة.

وهذا النوع من الوساوس من البعيد جداً أن يندفع بالكامل بحيث

لا يخطر أبداً، ولكنه ليس محالاً أيضاً. إذ قال رسول الله ﷺ:

«من صلّى ركعتين لم يحدّث فيها نفسه بشيء من أمر الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[(١)].

فلولا أنه غير متصوّر لما ذكره ﷺ، إلا أنه لا يتصوّر ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب، حتى صار كالهائم المتيّم. فالمستغرق في الحب يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه فيغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه، فلو كلّمه غيره لم يسمع.

فإذا تأملت في جملة هذه الأقسام وأصناف الوساوس علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجهاً من الصحة ولكن كل منها في جهة خاصة.

وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد، ولكن الخلاص منه عمراً بعيد أو محال. ولا تنقطع الوسوسة إلا بقطع جذورها من القلب وإغلاق أبوابها. فما دام الإنسان يملك ولو ديناراً واحداً وهو مشغول به، لا يخلّيه الشيطان فيأتيه في صلاته فيدفعه للتفكير في ديناره وأنه كيف يحفظه وفيما ينفقه وكيف يخفيه حتى لا يعلم أحد به، أو كيف يظهره ليتباهى به أمام الغير.

فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلّص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أنه لا يقع الذباب عليه وهو محال. فالدنيا باب عظيم لوساوس الشيطان وليس له باب واحد بل أبواب.

قال حكيم من الحكماء:

الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي، فإن امتنع آتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة، فإن أبى أمره بالتحرّج والشدّة حتى يحرّم

---

(١) أخرجه أحمد.

عليه ما ليس بحرام، فإن أبى شكّكه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم، فإن أبى خفّف عليه أعمال البرّ حتى يراه الناس صابراً عفيفاً فتميل قلوبهم إليه ويعجب بنفسه وبه يهلكه، وعند ذلك تشتد الحاجة فإنها آخر درجة، ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منها إلى الجنة.

أقسام القلوب في التغيّر والثبات

إن القلب كما ذكرنا تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصبّ إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها. فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب، فإذا أصابه شيء وتأثر به، أصابه من جانب آخر ما يضاده فيغيّر وصفه. فإن نزل الشيطان به ودعاه إلى الهوى والتفت القلب إليه، نزل الملك به وصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره. وإن جذبه ملك إلى خير جذبه ملك آخر إلى غيره.

فتارة يكون متنازعاً بين ملكين، وتارة بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان ولا يكون قط مهملاً. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾(١).

ولاطّلاع رسول الله ﷺ على عظيم صنع الله في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به ويقول: «لا، ومقلّب القلوب»(٢).

وكان ﷺ كثيراً ما يقول:

«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؛ قالوا: أوَ تخاف يا رسول الله ﷺ؟ فقال ﷺ: وما يؤمنني والقلب

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري: ج٨، ص١٦٠.

بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء».

وفي لفظ آخر قال ﷺ:

«إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه»[1].

وضرب له رسول الله ﷺ ثلاثة أمثلة فقال:

«مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة»[2].

وقال ﷺ:

«مثل القلب في تقلّبه كالقدر إذا استجمعت غلياناً»[3].

وقال ﷺ:

«مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلّبها الرياح ظهراً لبطن»[4].

وهذه التقليبات من عجيب صنع الله، وعجائب صنع الله في تقلّبها لا يهتدي إليه ولا يعرفه إلا المراقبون لقلوبهم والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى. والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما على ثلاثة أقسام:

الأول: القلب التقي:

وهو قلب عمّر بالتقوى وزكي بالرياضة، وطهر من خبائث الأخلاق، فتنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر ليعرف دقائق الخير فيه، ويطلع على

---

(١) الحاكم: ج١، ص٥٢٦.
(٢) الحاكم في المستدرك: ج٤، ص٣٠٧.
(٣) أخرجه أحمد: ج٦، ص٤.
(٤) أخرجه ابن ماجة: رقم ٨٨.

أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه فيحكم بأنه لا بد من فعله. فينظر الملك إلى القلب فيجده طيباً في جوهره، طاهراً بتقواه، مستنيراً بضياء العقل، معموراً بأنوار المعرفة. ويراه صالحاً لأن يكون مستقراً له ومهبطاً، فعند ذلك يمدّه بجنود لا ترى ويهديه إلى الخيرات، حتى ينجرّ الخير إلى الخير على الدوام ولا يتناهى إمداده بالترغيب في الخير وتيسير الأمر عليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾[1].

وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية، حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، ولا يخفى على هذا النور خافية ولا يروّج عليه شيء من مكائد الشيطان، بل يقف عليه الشيطان ويوحي زخرف القول غروراً ولكن دون أن يلتفت هذا القلب الطاهر إليه.

وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معموراً بالمنجيات. وهو القلب الذي أقبل الله تعالى عليه بوجهه، وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2]. وبقوله عز وجل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾[3].

الثاني: القلب العابد للهوى:

هو القلب المخذول المشحون بالهوى المدنس بالخبائث، الملوّث بالأخلاق الذميمة، المفتّحة فيه أبواب الشياطين، المسدودة عنه أبواب

---

(١) سورة الليل، الآيات: ٥ - ٧.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٧.

الملائكة. ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه، فينظر القلب إلى العقل ليستفتيه ويستكشف منه وجه الصواب، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له. فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته بسبب انخناس جد العقل، فيقوى سلطان الشيطان بسبب انتشار الهوى، فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني، ويوحي بذلك زخرفاً من القول غروراً. فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين، ويتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفىء أنواره فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها، فلا تقدر على النظر. وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب قدرة على الاستبصار. ولو بصّره واعظ فأسمعه ما هو الحق فيه عمي عن الفهم وصمّ عن السمع وهاجت الشهوة ونشط الشيطان وتحرّكت الجوارح على وفق الهوى، وظهرت المعصية ونزلت إلى عالم الشهادة من خزائن الغيب بقضاء الله وقدره، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1].

وبقوله عز وجل:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾[2].

وبقوله تعالى:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

ورب قلب هذه حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات، كالذي يتورّع

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.
(٢) سورة يس، الآية: ٧.
(٣) سورة يس، الآية: ١٠.

عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه.

أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر أو ذكر عيب من عيوبه. أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله. فينسى فيه المروّة والتقوى وكل ذلك سببه تصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى صار مظلماً وانطفأت أنوار البصيرة فيه وكذلك نور الحياء والإيمان وغدا ساعياً في تحصيل مراد الشيطان.

الثالث: القلب المؤمن:

قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشرّ فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير. فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر، فتقوّي الشهوة وتحسّن التمتع والتنعم. عندها ينبعث العقل لنصرة خاطر الخير ويقف في وجه الشهوة، فيقبح فعلها وينسبها إلى الجهل، ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها، وقلّة اكتراثها بالعواقب. فتميل النفس إلى نصح العقل، فيحمل الشيطان حملة على العقل ويقوّي داعية الهوى ويقول: ما هذا التحرّج البارد، ولم تمتنع عن هواك فتؤذي نفسك، وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه؟ أو يترك غرضه؟

أفتترك ملاذّ الدنيا لهم فيتمتعون فيها؟ وتحجر أنت على نفسك حتى تبقى محروماً شقياً يضحك عليك أهل زمانك؟ أتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا؟

أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز عن فعل ذلك، ولو كان ذلك شراً لامتنع عنه؟ فتميل النفس هنا إلى الشيطان وتنقلب إليه، فيحمل الملك حملة على الشيطان فيقول: هل هلك إلا من اتّبع لذة الحال ونسي العاقبة؟ أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذّة الجنة ونعيمها الأبدي؟

أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل النار؟

أتغترّ بغفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم للشيطان، مع أن عذاب النار لا يخفف عنك بمعصية غيرك؟

أرأيت لو كنت في صيف ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس، أم تطلب لنفسك الخلاص؟

فكيف تخالف الناس خوفاً من حرّ الشمس ولا تخالفهم خوفاً من حرّ النار؟

فعند ذلك تميل النفس إلى قول الملك، ولا يزال القلب يتردد بين الجندين إلى أن يغلب على القلب من هو أولى به.

فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية كانت الغلبة للشيطان، فيميل القلب إلى جنسه من أحزاب الشياطين، معرضاً عن حزب الله تعالى وأوليائه، وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى.

وإن كان الغالب على القلب الصفات الملكيّة لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة، وتهوينه أمر الآجلة، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه.

«وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» أي بين تجاذب هذين الحزبين، وهو الغالب على القلوب أي التقلب والانتقال من حزب إلى آخر. أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو حزب الشياطين فنادر من الجانبين.

الرؤية التوحيدية للطاعات والمعاصي

إن الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب. فالقلب من خزائن الملكوت، والطاعات والمعاصي إذا ظهرت كانت علامات تعرّف أرباب القلوب على سابق القضاء.

فمن خلق للجنّة يسّرت له الطاعة وأسبابها، ومن خلق للنار يسّرت له أسباب المعصية، وسلّط عليه أقران السوء، وألقي في قلبه حكم الشيطان. فإنه بأنواع الحكم يغرّ الحمقى كقوله لهم: إن الله تعالى رحيم فلا تبال. وإن الناس كلهم لا يخافون الله فلا تخالفهم، فإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غداً. والله تعالى يقول:

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

يعدهم بالتوبة ويمنيهم بالمغفرة فيهلكهم بإذن الله بهذه الحيل وما يجري مجراها. فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق، وكل ذلك بقضاء من الله وقدره.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾.

ويقول تعالى أيضاً:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾.

فهو الهادي والمضلّ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه، خلق الجنة وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالطاعة. وخلق النار وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالمعصية، وعرف الخلق علامات أهل النار وأهل الجنة فقال:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

القسم الثاني

المحبة - الشوق

الرضا - الأنس

مقدمة

إن المحبة لله عز وجل هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها وتابع من توابعها كالشوق والأُنس والرضا وغيرها...

ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها. وإن سائر المقامات وإن عزّ وجودها إلا أنه لم يخلُ الاعتقاد بإمكان تحققها. أما محبة الله عز وجل فقد عزّ الإيمان والاعتقاد بها حتى أنكر بعض العلماء إمكان تحققها، وقال: لا معنى للمحبة إلا المواظبة على طاعة الله عز وجل، وأما حقيقة المحبة فمحال الوصول إليها والتحقق بها إلا مع ما هو من جنسنا ومثالنا. وبإنكارهم للمحبة أنكروا الأنس والشوق ولذّة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه. لذا كان لا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر في هذا القسم من الكتاب ببيان شواهد الشرع عن المحبة وبيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أنه لا مستحق للمحبة إلا الله عز وجل، وأن أعظم اللذات لذّة النظر إلى وجه الله تعالى، ثم بيان أن سبب زيادة لذة النظر في الآخرة إلى المعرفة في الدنيا، وبيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في حب الله، والسبب في قصور الأفهام عن معرفة الله. ثم بيان معنى الشوق، وعلامات محبة العبد لله، ومحبة الله للعبد، ومعنى الأنس به عز وجل. ثم نذكر معنى الرضا وحقيقته وارتباطه بالمحبة.

شواهد من الشرع على حب العبد لله

إن حب الله عز وجل ورسوله ﷺ فرضٌ، وهو غير الطاعة، بل الطاعة تبع الحب وثمرته، فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع الإنسان من أحب. ومن شواهد الشرع على حب الله عز وجل قوله تعالى:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾(١).

وقوله عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٢).

وهذا دليل على إثبات الحب لله وإثبات التفاوت فيه، حتى جعل النبي ﷺ الحب لله من شروط الإيمان حين سأله أبو رزين العقيلي: يا رسول الله ما الإيمان؟

قال ﷺ: «أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما»(٣).

وفي حديث آخر:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»(٤).

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: ج٤، ص١١.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده: ج٣، ص١٧٢.

وفي حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من ماله وأهله والناس أجمعين»[1].

وقد قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

وقد أمر رسول الله ﷺ بالمحبة فقال:

«أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي»[3].

وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحبك، فقال ﷺ:

«استعد للفقر».

فقال: إني أحب الله. فقال ﷺ: «استعد للبلاء»[4].

وقيل إن النبي ﷺ نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به[5] فقال ﷺ:

«انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نوّر الله قلبه لقد رأيته

---

(١) البخاري: ج١، ص١٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج٣، ص١٥٠.

(٤) أخرجه البزار.

(٥) تنطق به: أي شد وسطه به.

بين أبويه يغذونه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون»[1].

وفي الخبر المشهور أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟

فأوحى الله عز وجل إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟

فقال عليه السلام: يا ملك الموت الآن فاقبض.

وهذا المقام لا يجده إلا عبد يحب الله عز وجل بكل قلبه، فإذا علم أن الموت سبب اللقاء مال قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه. وقد قال نبينا ﷺ في دعائه:

«اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إليّ من الماء البارد»[2].

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟

فقال له الرسول ﷺ: ما أعددت لها؟

فقال: ما أعددت لها كثير صلاة وصيام إلا أني أحب الله ورسوله.

فقال ﷺ المرء مع من أحب[3].

ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟

فقالوا: الخوف من النار. فقال عليه السلام: حق على الله أن يؤمن الخائف.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.
(٢) الجامع الصغير.
(٣) رواه مسلم: ج٨، ص٤٢.

ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى فإذا هم أشد نحولاً وتغيّراً فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الشوق إلى الجنة. فقال عليه السلام: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون، ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى فإذا هم أشد نحولاً وتغيّراً كأن على وجوههم المرايا من النور، فقال عليه السلام: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حب الله عز وجل. فقال عيسى عليه السلام: أنتم المقربون أنتم المقربون.

فالمؤمن إذا عرف ربّه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الرغبة، وهو بجسده في الدنيا وروحه في الآخرة.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«حب الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله، والمحب أخلص الناس سرّاً لله وأصدقهم قولاً وأوفاهم عهداً وأزكاهم عملاً وأصفاهم ذكراً وأعبدهم نفساً يتباهى به الملائكة عند مناجاته وتفتخر برؤيته، وبه يعمّر الله تعالى بلاده وبكرامته يكرّم الله عباده، يعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، فلو علم الخلق ما محلّه عند الله ومنزلته لديه لما تقربوا إلى الله إلا بتراب قدميه. وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: حب الله نار لا يمرُّ على شيء إلا احترق، ونور الله لا يطلع على شيء إلا أضاء، وسماء الله ما ظهر من تحته من شيء إلا غطاه، وريح الله ما تهبّ في شيء إلا حركته، وماء الله يحيى به كل شيء، وأرض الله ينبت منها كل شيء، فمن أحب الله أعطاه كل شيء من المُلك والمِلك.

وقال النبيﷺ: إذا أحب الله عبداً من أمتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليحبوه فذلك المحب حقاً، طوبى له ثم طوبى له، وله عند الله شفاعة يوم القيامة»[١].

(١) مصباح الشريعة: الباب ٩٦.

حقيقة الحب

إن حقيقة المحبة لا تنكشف إلا بعد معرفة الأصول التالية:

أولاً: إن ما ينبغي أن نعرفه أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، حيث إن الإنسان لا يحب من لا يعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد، بل الحب من خاصية الحي المدرك.

ثم إن ما تدركه المدركات في أنفسها ينقسم تارة:

١ ـ إلى ما يوافق طبعها ويلائمه ويلذه.

٢ ـ وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه.

٣ ـ وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ.

فكل ما كان في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك. وما كان في إدراكه ألم فهو مبغوض، وما يخلو من ألم ولذة فلا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً.

إذن كل لذيذ محبوب عند المتلذِّذ به، ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلاً إليه، ومعنى كونه مبغوضاً أن في الطبع نفرة عنه.

فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذّ، فإن تأكد هذا الميل وقوي سمي عشقاً.

والبغض عبارة عن نفرة الطبع من المؤلم والمتعب، وإذا قوي هذا

النفور سمي مقتاً. فهذا هو الأصل الأول في حقيقة الحب لا بد من معرفته.

ثانياً: إن الحب لما كان تابعاً للمعرفة والإدراك انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس. فلكل حاسة إدراكٌ لنوع من المدركات، ولكل وحدة منها لذة في بعض ما تدركه، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبة عند الطبع السليم.

فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور الحسنة، ولذةِ الأذن في النغمات الطيبة الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعام، ولذة اللمس في اللّين والنعومة.

إذاً لما كانت ما تدركه الحواس لذيذاً فقد صار محبوباً، وللطبع السليم ميلٍ إليها حتى قال النبي الأكرمﷺ:

«حبّب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة».

فسمّى الطيب محبوباً ومعلوم أن لا حظ للعين والسمع فيه بل للشمّ فقط. وسمّى النساء محبوبات ولا حظ فيهنّ إلا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع. وسمّى الصلاة قرّة عين وجعلها أبلغ المحبوبات، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حسّ سادس مطيته القلوب لا يدركه إلا من كان له قلب.

ولذّات الحواس الخمسة تشارك فيها البهائم الإنسان، فإذا كان الحب مقصوراً على الحواس الخمس حتى يقال: إنّ الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يمثل في الخيال إذاً فلا يمكن أن يحب، فإذن قد بطلت خاصيّة الإنسان وما تميّز به من الحس السادس الذي إما يعبّر عنه بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيها.

ولكن هيهات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكاً من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذة القلوب بما تدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجلُّ عن إدراكها الحواس أتمّ وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة كما سيأتي تفصيله. فلا ينكر حب الله تعالى إذن إلا قعد به القصور إلى درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً.

ثالثاً: لا يخفى على أحد أن الإنسان يحب نفسه، كما لا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه. ولكن هل يتصوّر أن يحبّ الإنسان غيره لذاته لا لأجل نفسه (أي نفس الإنسان). وهذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته (أي لذات هذا الغير) ما لم يرجع منه حظ إلى المحب. والحق أن ذلك متصور وموجود وهذا ما سنبيّنه من العنوان التالي: أقسام المحبة وأسبابها.

أقسام الحب وأسبابه

١ ـ حب الإنسان لنفسه:

إن المحبوب الأول عند كل حيّ نفسه وذاته، ومعنى حبّه لنفسه أن في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده ونفرة من عدمه وهلاكه. لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحبِّ، وأيّ شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده، وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه.

لذا يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت، بل لو اختطف الإنسان من غير ألم وتعب وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لذلك. ولا يحب الموت والعدم المحض إلا من قاس ألماً في هذه الحياة، ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء. فإن أحب العدم لم يحبّه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء. فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب. وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضاً محبوب.

فالمحبوب الأول للإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه. فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوامه موقوف عليها. والمال أيضاً محبوب لأنه آلة في دوام الوجود وكماله وكذا سائر الأسباب. والإنسان يحب هذه الأشياء لا

لعينها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها. حتى أنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ. بل ويتحمّل المشاق لأجله لأنه سيخلفه في الوجود بعد عدمه، فيكون في بقاء نسله نوع من البقاء له. فلفرط حبّه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه وذلك بعد أن عجز عن الطمع في بقاء نفسه.

نعم لو خيّر بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقياً على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاؤه. وكذلك فإن حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبّه لكمال نفسه فإنه يرى نفسه بهم قوياً بسببهم.

إذن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمّل للإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة. وعليه فالمحبوب الأول عند كل حيّ ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله، والمكروه عنده ضد ذلك.

٢ ـ الإنسان يحب من أحسن إليه:

الإنسان عبد الإحسان وقد جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، لذا قال رسول الله ﷺ:

«اللهم لا تجعل لفاجر عليّ يداً فيحبه قلبي»(١).

حيث أشار إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه وهو جبلّة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها. ولهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة، وهذا الحب يرجع أيضاً إلى السبب الأول؛ فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكماله، وحصول الحظوظ التي بها يتهيّأ الوجود. إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده

---

(١) أخرجه أبو المنصور الديلمي.

وهي عين الكمال المطلوب، أما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له كالطبيب الذي يكون سبباً في دوام صحة الأعضاء، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة، إذ الصحة مطلوبة لذاتها أما الطبيب فليس محبوباً لذاته بل لأنه سبب للصحة.

وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب. إذاً يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة وإلا فالكل راجع إلى محبة الإنسان نفسه.

٣ - حب الشيء لذاته:

أن يحب الإنسان الشيء لذاته لا لحظ ينال من ورائه، بل يكون ذات الشيء عين حظّه، وهذا هو الحب الحقيقي الذي يوثق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحُسْن.

فإن كل جمال محبوب لعينه عند مدرك الجمال، لأن في نفس إدراك الجمال اللذة واللذة محبوبة. ولا تظنن أن حبَّ الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحبُّ الصور الجميلة لأجلها، كما أن إدراك نفس الجمال أيضاً لذيذ فيجوز أن يكون محبوباً لذاته. وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوبان لا لأجل الشرب أو الأكل أو لينال منها حظ سوى نفس الرؤية. وقد كان رسول الله ﷺ تعجبه الخضرة والماء الجاري. والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان، الحسنة النقش، المتناسبة الشكل.

حتى أن الإنسان لتنفرج عنه الغموم بالنظر إليها لا لطلب حظ من وراء النظر، بل لأن هذه الأسباب بنفسها لذيذة وكل لذيذ محبوب وكل حُسن وجمال لا يخلو إدراكه من لذّة. ولا أحد ينكر كون الجمال

محبوباً بالطبع، فإن ثبت أن الله تعالى جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله ﷺ:

«إن الله جميل يحب الجمال»(١).

٤ ـ حب الشيء لباطنه أو ظاهره الجميل:

إن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشوباً بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان.

فإن الحسّ الأغلب على الخلق هو حسّ الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا متلوناً فلا يتصوّر حسنه، وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن في إدراكه لذّة فلا يكون محبوباً وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة.

إننا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا ثوب حسن وهذا إناء حسن، ومعلوم أن العين تستلذّ النظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ باستماع النغمات الحسنة، وما من شيء من المدركات إلا وهي منقسمة إلى حسن وقبح، فما معنى هذا الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء؟ فلا بد من البحث عنه، وهذا بحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه فنصرّح بالحق ونقول:

كل شيء يكون جماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كانت جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وهي غاية الكمال له. وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

والجمال بقدر ما حضر. فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو. والخط الحسن كل ما جمع مما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازنها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها. فلكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به. فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت.

ولا ينبغي أن يقال إن هذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحسن البصر مثل الأصوات والطعوم والأرائيح فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات وليس يُنكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها، إنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس؛ لأن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات حيث يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة.

وإنما يراد بالأخلاق الجميلة؛ العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروّة. وليس شيء من هذه الصفات يدرك بالحواس الخمس، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة. وكل هذه الخصال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته، وآية أن الأمر كذلك هو أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم مع أن الناس لم يشاهدوهم. بل وعلى حب أرباب المذاهب، حتى أن الرجل قد يجاوز به حبّه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع أمواله في نصرة مذهبه والذبّ عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن بإمامه. فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب، وليت شعري من يحب إمامه مثلاً فَلِمَ يحبه؟ وهو لم يشاهد قط صورته ولو شاهدها ربما لم يستحسنها. فاستحسانه الذي حمله على إفراطه في الحب إنما كان لأجل سيرته الباطنة لا لصورته الظاهرة فإن صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً وهو إنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى

وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين ولنهوضه لإفاضة علم الشرع ولنشر هذه الخيرات في العالم. وهذه كلها أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة، أما الحواس فعنها قاصرة.

والصفات الباطنة ترجع جملتها إلى العلم والقدرة. وكل الخير يتشعب من هذين الوصفين، وهما غير مدركين بالحس. فالجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حباً. فالمحبوب هو مصدر هذه السيرة الجميلة وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة وهي بدورها ترجع إلى كمال العلم والقدرة. وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس، حتى أن الصبي المخلّى وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائباً أو حاضراً، حيًّا أو ميّتاً لم يكن لنا سبيل إلى ذلك إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة. فهل غلب حبّ الصحابة وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لا تدرك بالحواس.

ولما وصف الناس حاتماً بالسخاء أحبته القلوب حباً ضرورياً وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم. بل إذا حكي عن بعض الملوك في بعض أقطار الأرض أن سيرته كانت العدل والإحسان وإفاضة الخير؛ غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأي الديار.

إذن ليس حب الإنسان مقصوراً على من أحسن إليه بل المحسن في نفسه محبوب، وإن لم ينتهي إحسان هذا المحسن قط إلى المحبوب، لأن كل جمال وحسن محبوب. فالصورة ظاهرة وباطنة، والحسن والجمال يشملهما، والصورة الظاهرة تدرك بالبصر الظاهر والصور الباطنية بالبصيرة الباطنية. فمن حرم البصيرة الباطنية لن يدرك الصور

الباطنية ولن يلتذ بها، كما أنه لن يحبها ولن يميل إليها. أما من كانت البصيرة الباطنية أغلب عليه من الحواس الظاهرة، كان حبّه للمعاني الباطنة أكثر من حبّه للمعاني الظاهرة. فشتان بين من يحب نقشاً مصوراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة، وبين من يحب نبياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنية.

٥ ـ حب الشيء للمناسبة الخفيّة بين المحبّ والمحبوب:

قد تتأكد المحبة أحياناً بين شخصين لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح. كما قال رسول الله ﷺ:

«الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(١).

إذن رجعت أقسام الحب إلى خمسة وهي:

١ ـ حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه.

٢ ـ حب الإنسان لمن أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه.

٣ ـ حب الإنسان للأشياء لذاتها ونفسها.

٤ ـ حب الإنسان للأشياء لصورها ولجمالها الباطني.

٥ ـ حب الإنسان لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن.

فلو اجتمعت هذه الأسباب كلها في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة. كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى والده، هذا الولد لا محالة سيكون محبوباً غاية الحب. وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ج٨ ص٤١.

الخصال بحسب قوة هذه الخصال في نفسه. فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب في أعلى الدرجات. أما أن هذه الأسباب كلها لا يتصوّر كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى، فلا يستحق المحبة في الحقيقة إلا الله سبحانه، فهذا ما سنبيّنه في العنوان التالي.

الله تعالى وحده المستحق للمحبة

إن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى. أما حب الرسول فهو محمود لأنه عين حب الله وكذا حب العلماء والأتقياء. وكل ذلك مرجعه إلى حب الأصل. فلا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله، ولا مستحق للمحبة سواه. وتوضيحه يكون من خلال الرجوع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها، فنبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها، وهي غير موجودة في غيره. وإن وجودها حقيقي في حق الله تعالى، أما في حق غيره فهي وهم وتخيّل ومجاز محض لا حقيقة له.

ومهما ثبتت هذه الأوهام فقد انكشف لكل ذي بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى حيث ظهر أن التحقيق يقتضي أن يحب أحداً غير الله تعالى.

السبب الأول:

وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله. فهذه جبلّة كل حيّ والتي لا يتصوّر أن ينفك عنها، وهذا ما يقتضي غاية المحبة لله تعالى. فكل من عرف نفسه وعرف ربّه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله وإلى الله. فهو تعالى المخترع

الموجد له، وهو المبقي له، والمكمّل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه، وخلق الهداية إلى استعمال هذه الأسباب.

وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله عليه بأن أوجده وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بتكميل خلقته.

وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوامٌ إلا القيوم الحيّ الدائم الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به.

فإذا أدرك العارف أن ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره فإنه بالضرورة سيحب هذا الغير المفيد لوجوده والمديم له، خصوصاً إذا عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوّماً لغيره. وإن لم يحبّه فهو لجهله بنفسه وبربّه. والمحبة ثمرة المعرفة، فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قيل:

من عرف ربه أحبه ومن عرف النار بعد عنها ومن عرف الدنيا زهد فيها. فكيف يتصور أن يحبّ الإنسان نفسه ولا يحب ربّه الذي به قوام نفسه. فالمبتلى بحرّ الشمس يحب الظل ويحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل.

وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله عز وجل هو كالظل. فإن الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس، ووجود الظل تابع للشجر.

إذن إن كان حب الإنسان لنفسه ضرورياً فإن حبه لمن به قوامه أوّلاً ودوامه ثانياً، ضروري أيضاً. أما من خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته حتى ذهل عن ربّه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته.

واقتصر نظره على الشهوات والمحسوسات، وهو عالم الشهادة الذي يشاركه فيه البهائم بالتنعم به دون عالم الملكوت الذي لا يطأ أرضه إلا من سنخه كالملائكة، فينظر فيه بقدر قرب صفاته من الملائكة، ويعرض عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

السبب الثاني:

وهو حب الإنسان لمن أحسن إليه، فالمحسن لا محالة محبوب عنده، وهذا بعينه يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى. لأنه لو عرف الله تعالى حق المعرفة لأدرك أن المحسن الحقيقي إليه هو الله تعالى فقط. وأنواع إحسانه إلى عبيده ليست معدودة، إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

ولكننا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس ما هو إلا مجاز، وإنما المحسن هو الله عز وجل.

ولتقريب الصورة نفترض أن أحدهم أنعم عليك بجميع أمواله ومكّنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء، حتى ظننت أن هذا الإحسان منه وهو خطأ واشتباه منك. صحيح أن الإحسان وقع من المحسن وقد حصل بماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك، ولكن السؤال أنه من الذي أنعم على المحسن بأن خلقه وأوجده، وخلق ماله، وخلق قدرته وإرادته وداعيته؟ ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك، وألقى في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله. ومهما سلط الله عليه الدواعي، ولكونه قد ألقي في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في أن يسلّم إليك ماله،

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

صار مقهوراً مضطراً في التسليم لا يستطيع مخالفته.

الله تعالى هو الذي دفع بالمحسن وسخره لك، وسلط عليه الدواعي الباعثة والمرهقة إلى الفعل. أما يد المحسن فواسطة يصل بها إحسان الله إليك، فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث إنه محسن بنفسه لا من حيث هو واسطة، كنت جاهلاً بحقيقة الأمر. فإن الإحسان لا يتصوّر من الإنسان إلا إلى نفسه وأما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين.

لأن المحسن لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل؛ إما آجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنّة والاستسخار، أو الثناء والصيت والإشتهار بالسخاء والكرم، أو لجذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة.

فكما أن الإنسان لا يلقي ماله في البحر إلا لغرض له فيه كذلك لا يلقي ماله في يد إنسان إلا لغرض له فيه وهذا الغرض هو مطلوبه ومقصوده. أما أنت فلست مقصوداً بل أنت آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال. لقد استخدمك في القبض للتوصل إلى غرضه. فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من عوضاً هو أرجح عنده من ماله. ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما تنازل عن ماله لأجلك أصلاً. إذن فالمحسن غير مستحق للشكر والحب من وجهين:

الأول: أنه مضطر بتسليط الله الدواعي عليه، ولا قدرة له على المخالفة. فالمحسن لو خلاه الله عز وجل ونفسه لم يبذل حبّة من ماله، ولكن الله تعالى سلط عليه الدواعي وألقى في نفسه أن حظه ديناً ودنياً يكمن في بذله.

الثاني: أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب إليه مما بذله. فكما لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما

بذله، كذلك الواهب فقد اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضاً ما آخر. وليس شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً، بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بإزائها.

وعليه فالإحسان بالجود من غير حظ وعوض يرجع إلى الباذل محال إلا من الله تعالى. فهو عز وجل الذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم ولأجلهم، لا لحظ أو نفع يرجع إليه. فإنه يتعالى عن الأغراض والحظوظ. ولفظ الإحسان والجود في حق غيره كذب أو مجاز، ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض.

فهو عز اسمه المتفرّد بالجود والإحسان والطول والامتنان. وإن كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله عز وجل؛ إذ الإحسان من غيره محال، وهو وحده المستحق لهذه المحبة.

السبب الثالث:

وهو حبّك للمحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه. فهو حب للمحسن من حيث هو محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك.

وهذا أيضاً يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي أن لا يُحبَّ غيره أصلاً. لأن الله تعالى هو المحسن والمتفضّل على جميع أصناف الخلق:

أولاً: بإيجادهم.

ثانياً: بتكميلهم بالأعضاء والأسباب الضرورية لهم.

ثالثاً: بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظانّ الضرورة.

رابعاً: بتحميلهم بالزوائد والمزايا التي هي في مظنّة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم.

مثال الضروري من الأعضاء؛ الرأس والقلب والكبد. ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل. ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلوّز العينين، إلى غير ذلك مما لو لم يكن لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة.

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان الماء والغذاء، ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه.

ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة.

إذن الله تعالى هو وحده المحسن، وكيف يكون غيره محسناً وذلك المحسن نفسه حسنة من حسنات قدرة الله تعالى. فهو خالق الخلق وخالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان. لهذا السبب كان الحب لغيره جهل محض. وكل من عرف هذه الحقيقة لم يحب إلا الله تعالى.

السبب الرابع:

وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ يناله من ورائه. وقد بيّنا أن ذلك مجبول في الطباع، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وإلى جمال الصور الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة.

والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختص بإدراكه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

فكل جمال محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب. ومثال هذا الأمر حب الأنبياء والعلماء وذوي

المكارم السنيّة والأخلاق الرضيّة. فمن أحب الرسول أو الإمام أو ولياً من أولياء الله، لم يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم لا لحسن صورهم ولا حتى أفعالهم، بل دلّ حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال. إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها.

فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل وحسن نقش النقاش وبناء البناء، انكشف له من هذه الأفعال صفاتهم الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة.

فكلما كان المعلوم أشرف وأتمّ جمالاً وجلالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجمل. وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل مرتبة كانت القدرة عليه أجلّ وأشرف قدراً.

وأجل المعلومات هو الله فلا جرم أن أحسن العلوم وأشرفها؛ معرفة الله عز وجل.

وجمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب يرجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: علمهم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله وشرائع الأنبياء.

الثاني: قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة.

الثالث: تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير، الجاذبة إلى طريق الشر.

وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء. ولكن أين علم الأولين والآخرين من علم الله الذي هو محيط بالكل حتى أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وقد خاطب عز اسمه الخلق كلهم فقال:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(١).

ولو اجتمع أهل السماوات والأرض على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلقة نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشره، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم بتعليمه إياهم علموه كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾(٢).

فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً، وكان هو في نفسه زينة وكمالاً للموصوف به إذاً فلا ينبغي أن يحبَّ لهذا السبب إلا الله تعالى.

فعلوم العلماء جهل إذا ما قيست إلى علمه تعالى. والتفاوت بين علم الله وعلم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلق وأجهلهم. لأن الأعلم لا يفضل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد. أما فضل علم الله على علوم الخلائق فلا حد له، إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية.

أما صفة القدرة فهي أيضاً كمال والعجز نقص، وكل كمال وبهاء وعظمة وقهر ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيذ، حتى أن الإنسان عندما يسمع شيئاً من حكايات شجاعة علي عليه السلام وغيره من الشجعان ومدى قدرتهما واستيلائهما على الأقران فإنه يجد في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً بمجرد سماعها فضلاً عن مشاهدتها، ويورث ذلك حباً ضرورياً للمتصف بها لأنها نوع كمال.

والآن إذا نسبنا قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله عز وجل، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقواهم بطشاً وأقهرهم للشهوات

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٣، ٤.

وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره، إلا أن قدرته محدودة بحيث إنها تنتهي إلى حد ما. وغاية الأمر أنه يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض الأشخاص في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا نفعاً ولا ضراً، بل هو لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصم وبدنه من المرض. ولا حاجة إلى عد ما يعجز عنه الإنسان مما هو متعلق قدرته فضلاً عما لا تتعلق قدرته به من ملكوت السماوات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها مما لا قدرة له على ذرة منها. أما ما هو قادر عليه فليست قدرته عليه من نفسه وبنفسه بل من الله تعالى خالقه وخالق قدرته والممكن له من ذلك.

ولو سلّط الله بعوضاً على أعظم ملك لأهلكه، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه له كما قال الله تعالى في أعظم ملك من ملوك الأرض ذي القرنين:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١).

حيث لم يكن ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله عز وجل إياه في جزء من الأرض. فليس أحد قدرته من نفسه، بل لا حول لأحد ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فهو الجبار القاهر والعليم القادر. السماوات مطويات بيمينه والأرض وما عليها في قبضته. وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته، فإن أهلكهم على آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة، وإن خلق أمثالهم ألف مرّة لم يعيَ بخلقها، ولا يمسّه لغوب ولا فتور في اختراعها. فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته. فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء. فإن كان يتصوّر أن

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٤.

يُحبَّ قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سوى الله تعالى أصلاً.

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث، فهي إحدى موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة.

والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث إلا أنه لا يتصوّر كمال التقدس والتنزه إلا لذي الجلال والإكرام. فالمخلوق لا يخلو عن النقص، وكونه مخلوقاً عاجزاً مسخراً ومضطراً هو عين العيب والنقص. فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال غيره عز وجل. فإن منتهى الكمال أقلّ درجاته أن لا يكون عبداً مسخراً لغيره وقائماً به، وذلك محال لأن الله تعالى هو وحده المتفرّد بالكمال، المتنزه عن النقص، المقدس عن العيوب. وإن شرح ذلك التقديس والتنزيه في حقه يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره.

إن الكمال والجمال لا يكونان تامين إلا في حق الله عز وجل، أما كمال غيره وتنزهه فلا يكون مطلقا بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصاناً. كما أن للفرس كمالاً بالإضافة إلى الحمار، وللإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس. فأصل النقص شامل للكل وإنما يتفاوتون في درجات النقصان.

إذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الله الواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة،

ولا تنفلت عن سطوته وبطشه رقاب القياصرة. الأزلي الذي لا أوّل لوجوده، الأبدي الذي لا آخر لبقائه، الواجب الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به. جبار الأرض والسماوات، خالق الجماد والحيوان والنبات، المتفرّد بالعزة والجبروت، المتوحد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي تتحيّر في معرفة جلاله العقول وتخرس عن وصفه الألسنة. الذي كمال معرفة العارفين به الاعتراف بالعجز عن معرفته، ومنتهى نبوّة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه. كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين:

«أنت كما أثنيت على نفسك لا أحصي ثناء عليك».

وقال سيد الأوصياء عليه السلام:

«العجز عن درك الإدراك إدراك».

وقال سيد الساجدين عليه السلام:

«سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته».

السبب الخامس:

وهو المناسبة والمشاكلة، إذ إن شبه الشيء منجذب إليه، والشكل إلى الشكل أميل، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي، والكبير يألف الكبير، والطير يألف نوعه. وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف. وألف التاجر بالتاجر وأُنسه به أكثر من أُنسه بالفلاح. وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار. وإذا كانت المناسبة سبب المحبة، فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي للصبي في معنى الصِّبا، وقد تكون خافية بحيث لا يطلع عليها أحد. كما من الاتحاد

الذي يحصل بين شخصين من دون ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشارﷺ إليه إذ قال

«الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

والتعارف هو التناسب. والتناكر هو التباين. وهذا السبب [الخامس] أيضاً يقتضي حب الله لمناسبة باطنية، لا ترجع إلى المشابهة في الصورة ولا في الشكل، بل ترجع إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر، بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شروط السلوك.

■ فالذي يذكر هو قرب العبد من الله عز وجل في الصفات التي أمر بالإقتداء فيها والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله. وذلك من خلال اكتساب محامد الصفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة.

فكل ذلك يقرّب إلى الله عز وجل لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات.

■ وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي، فهي التي يومي إليها قوله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(1).

حيث بيّن أنه أمر رباني خارج عن حدّ عقول الخلق. ويشير إليه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾(2). إذ لا يستحق آدم

(1) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(2) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

خلافة الله إلا بتلك المناسبة. وإليه يرمز قوله ﷺ:

«إن الله خلق آدم على صورته».

حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس. فشبّهوا وجسّموا وصوّروا، تعالى الله ربّ العالمين عما يقول الجاهلون علوّاً كبيراً. وإليه الإشارة بقوله تعالى لبعض الأنبياء:

«مرضت فلم تعدني فقال: يا ربّ وكيف ذلك؟ قال: مرض فلان فلم تعده، ولو عدته لوجدتني عنده».

وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض. قال الله تعالى في الحديث القدسي:

«ولا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به»[1].

وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه، فقد تحزّب الناس وافترقوا فيه إلى:

- قاصرين؛ مالوا إلى التشبيه الظاهر.
- وإلى غالين مسرفين؛ جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتحاد، وقالوا بالحلول. حتى قال بعضهم: أنا الحق.

فضلّ النصارى في عيسى ﷺ وقالوا هو الإله. وقال آخرون منهم تدرّع الناسوت باللاهوت. وقال آخرون: اتّحد به.

وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الحلول والاتحاد، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السرّ؛ فهم الأقلون.

فهذه هي أسباب الحب وكلها متحققة في حق الله تعالى في

(١) الكافي: ج٢، ص٣٥٢.

الحقيقة لا في المجاز، بل وفي أعلى الدرجات لا في أدناها. فكان المقبول عند ذوي البصائر هو حب الله تعالى فقط. كما كان المقبول عند العميان حب غير الله فقط.

وكل من يحب واحداً من الخلق لسبب من هذه الأسباب فإنه يتصوّر أن يحب غيره أيضاً لمشاركته إياه في السبب. والشركة نقصان في الحب وغضّ من كماله. ولا يتفرّد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه، إلا في حق الله تعالى فهو موصوف بهذه الأوصاف التي هي غاية الجمال والكمال ولا شريك له فيها، لذا فلا جرم أن لا يكون في حبه شركة أيضاً، فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته. فهو المستحق لأصل المحبة ولكمالها استحقاقاً لا يشاركه فيه أحد أبداً.

معرفة الله وحبّه أسمى اللذات وأعلاها

إن اللذات تابعة للإدراكات والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذتها في نيلها بمقتضى طبعها الذي خلقت له. فإن هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان هزلاً، بل خلقت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع.

فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام، فلا جرم أن تكون لذتها إذاً في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها.

وغريزة شهوة الطعام مثلاً خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، ولا جرم أيضاً أن تكون لذتها في نيل الغذاء الذي هو مقتضى طبعها.

وكذلك لذة السمع والبصر والشمّ حيث تكمن لذتها في الإبصار والاستماع والاستشمام. فلا تخلو إذاً غريزة من الغرائز من ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها. وكذلك يوجد في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[1].

وقد تسمّى العقل وقد تسمّى البصيرة الباطنية وقد تسمى نور

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

الإيمان واليقين. ولا معنى للإشتغال بالأسماء فإن الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب دائماً المعاني في الألفاظ وهو عكس المطلوب. إن القلب متميّز عن سائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة، كإدراكه لخَلْق العَالَم أو إدراكه لافتقار العالم إلى خالق مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية. ولنسمّ تلك الغريزة «بالعقل»، ولكن بشرط أن يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة. فقد اشتهر اسم العقل بهذا، ولذا ذمّه من ذمّه، وإلا فإن الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم، وبها يدرك معرفة الله تعالى هي من أعزّ الصفات ولا ينبغي أن تذم أبداً.

وهذه الغريزة إنما خلقت في الإنسان ليعلم بها حقائق الأمور كلها. فمقتضى طبع العقل العلم والمعرفة وهي لذته، وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة. حتى أن الذي ينسب إليه العلم والمعرفة ولو بالشيء الخسيس يفرح، والذي ينسب إليه الجهل ولو في شيء حقير يغتم به. كالعالم بلعبة الشطرنج على خستها فإنه لا يطيق السكوت فيه عن التعليم، وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه، وكل ذلك لفرط لذّة العلم، وما يستشعره من كمال ذاته.

فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهو منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته، وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به.

ثم ليست لذة العلم بالحراثة والحياكة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق. ولا لذّة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته، وملكوت السماوات والأرض.

فلذّة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم.

حتى أن الذي يعرف بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة، وإن جهله دفعه طبعه إلى التفحّص عنه.

وبهذا يستبان أن ألذّ المعارف أشرفها، وشرفها يكون بحسب شرف المعلوم. فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها. وليت شعري هل في الوجود شيء أجمل وأعلى وأشرف وأكمل من خالق الأشياء كلها ومكمّلها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟!

وهل يتصوّر أن تكون هناك حضرة متصفة بالملك والكمال والبهاء والجمال والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادىء جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين؟!

فإن كنت لا تشك بذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الإطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والإطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها.

وبهذا يتبين أن العلم لذيذ وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرض. فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات، أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس. فإن اللذات مختلفة:

أولاً: بالنوع: كمخالفة لذّة الوقاع للذّة السماع ولذة المعرفة للذة الرئاسة.

ثانياً: بالقوة والضعف: كمخالفة لذّة الشبق المغتلم من الجماع بالإضافة إلى لذة الفاتر للشهوة، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الفائق الجمال بالإضافة إلى ما دونه في الجمال.

واللذات تنقسم إلى:

١ ـ **لذات ظاهرة**: كلذة الحواس الخمس.

٢ ـ **لذات باطنة**: كلذة الرئاسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها. إذ ليست هذه اللذات للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق. والمعاني الباطنية أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة. فلو خير الرجل بين لذّة الهريسة والدجاج المسمن وبين لذة الرئاسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخيّر خسيس الهمّة ميّت القلب شديد النهمة لاختار الهريسة، وإن كان عالي الهمة كامل العقل اختار الرئاسة وهان عليه الجوع والصبر عليه. فاختيار الرئاسة يدل على أنها ألذّ عنده من الهريسة وسائر المطعومات الطيبة.

نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنية بعد كالصبي أو كالذي ماتت قواه الباطنية كالمعتوه لا يبعد أن يؤثِرَ لذّة الطعام على لذّة الرئاسة. وكما أن لذة الرئاسة هي أعلى من لذة الطعام عند من تجاوز نقصان الصِّبا والعته، فكذلك معرفة الله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية هي ألذّ من الرئاسة.

وهذه الحقيقة لا يدركها إلا من ذاق اللذّتين فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرّد والتفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرئاسة ويستحقرها لعلمه بفناء رئاسته وفناء من وقعت عليه رئاسته، وكونها مشوبة بالكدورات التي لا يتصور الخلو عنها وكونها مقطوعة بالموت الذي لا بد منه مهما:

﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا...﴾(١).

أما لذّة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

أعلى عليين إلى أسفل سافلين، فهي خالية عن المزاحمات والمكدِّرات، متسعة للمتواردين عليها، فلا يضيق عنهم بكثرتهم، فعرضها من حيث التقدير السماوات والأرض، وإذا خرج النظر عن المقدِّرات فلا نهاية لعرضها. فالعارف لا يزال يرتع من رياض هذه المعرفة ويكرع من حياضها ويقطف من ثمارها وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه المعرفة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم معرفة الله تعالى، إذ محل هذه المعرفة الروح التي هي أمر رباني سماوي. وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها. أما أن تعدم هذه المعرفة فهذا لم يقل الله تعالى به بل قال:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾(١).

ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد، وفي الخبر:

«إن الشهيد يتمنى في الآخرة أن يردّ إلى الدنيا فيقتل مرّة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وأن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرون من علوّ درجة العلماء».

إذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض ميدان للعارف يتبوّأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك فيها بجسمه وشخصه. فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السماوات والأرض. ولكل

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.

عارف مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون فيما بينهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم.

إذاً معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته وأسرار ملكه أعظم من لذة المحسوسات والرئاسة. وهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك لمن لا قلب له، لأن القلب معدن هذه القوّة. فمن طال فكره في معرفة الله سبحانه، فانكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يجد في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به. فمقصد العارفين كلهم الوصول إلى الحق ولقاؤه فهي قرّة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لها منها.

فإذا حصلت أن انمحقت الهموم والشهوات كلها فصار القلب مستغرقاً بالحق بحيث إنه لو ألقي في النار لم يحس بها لاستغراقه. ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه، لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية.

وليت شعري من لا يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى؟!

بل من عرف الله عرف أنّ اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منطوية كلها تحت هذه اللذّة كما قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواء مفرّقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ... فصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

ولذلك قال بعضهم: وهجره أعظم من ناره، ووصله أطيب من جنته. وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة

الأكل والشرب والنكاح. فإن الجنة معدن تمتع الحواس، أما القلب فلذته في لقاء الله عز وجل فقط.

إن مثال أطوار الخلق في لذاتهم مثال الصبي في أول حركته وتمييزه حيث تظهر فيه غريزة اللعب واللهو فيستلذ بهذه الغريزة حتى تكون عنده ألذ من سائر الأشياء. ثم تظهر عنده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب، ثم تظهر لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك كل ما قبلها ساعياً للوصول إليها، ثم تظهر عنده لذة الرئاسة والعلو والتكاثر وهي أحب لذات الدنيا وأغلبها وأقواها كما قال عز وجل في كتابه الكريم:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ﴾[1].

ثم بعد ذلك تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله، فيستحقر معها جميع ما قبلها.

فحب اللعب إذاً يظهر في سن الصِّبا وحب الزينة في سن التمييز وحب النساء في سن البلوغ وحب الرئاسة بعد العشرين وحب العلوم بقرب الأربعين وهي الغاية العليا. وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرئاسة، فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرئاسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى، أما العارفون فيقولون:

﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٣٨.

معرفة الله في الآخرة
موقوفة على معرفته في الدنيا

إن المدركات تنقسم إلى:

١ ـ ما يدخل في الخيال: كالصور المختلفة المتخيّلة، والأجسام المتلونة المتشكلة في أنواع الحيوان والنبات.

٢ ـ ما لا يدخل في الخيال: كذات الله سبحانه وتعالى، وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها.

إن من رأى إنساناً ثم غضّ بصره عنه، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها. ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك وجود فرق بينهما. والفرق لا يرجع إلى الاختلاف بين الصورتين، لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيّلة وإنما الافتراق يكون بمزيد الوضوح والكشف، بحيث إن صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً.

إذن الخيال أوّل الإدراك والرؤية هي الاستكمال لإدراك الخيال وهي غاية الكشف. وسميت بالرؤية لأنها غاية الكشف لا لأنها في العين. بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل في الجبهة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية.

إذا فهمت هذا بالنسبة إلى المتخيلات، فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل في الخيال لمعرفتها وإدراكها أيضاً درجتان؛ إحداهما أولى والثاني استكمال لها. وبين الثانية والأولى من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيّل والمرئي. فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأوّل مشاهدة ولقاء ورؤية، وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف.

وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر والمرئي، ولا بد من ارتفاع الحجاب لحصول الرؤية، أما إذا لم يرتفع كان الإدراك الحاصل مجرّد تخيّل، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار. والقول في سبب كونها حجاباً يطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[1] وقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[2].

ولا فرق في الرؤية بين الدنيا والآخرة. فكما أنه لا يجوز رؤيته سبحانه في الدنيا بالعين والبصر، فكذلك لا يجوز رؤيته في الآخرة بالعين والبصر. وكما أنه يجوز رؤيته في الآخرة بالقلب والبصيرة لأهل البصائر بحيث يتأتّى لهم المشاهدة واللقاء، فكذلك يمكن رؤيته في الدنيا بهذا المعنى أيضاً. والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلّة المعرفة دون البدن. فأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع أحوالهم

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

وتصرفاتهم، في ليلهم ونهارهم كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1].

وقال عز من قائل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾[2] وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3].

فسماهم شهداء لمشاهدتهم له في جميع أحوالهم كما ذكر بقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[4].

وقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾[5].

وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾[6].

وقال أيضاً: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[7].

وعندما تحقق أولياء الله تعالى بمعاني هذه الآيات شاهدوها بأعين قلوبهم، حتى سئل أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال عليه السلام: ويلك ما كنت أعبد ربًا لم أره. فقيل: وكيف رأيته؟ قال عليه السلام: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[8].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٥.
(٥) سورة الحديد، الآية: ٣.
(٦) سورة المجادلة، الآية: ٧.
(٧) سورة ق، الآية: ١٦.
(٨) الكافي: ج١، ص٩٧، رقم ٦.

وقال ابنه الإمام الحسين سيد الشهداء:

«كيف يُستدلُّ عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك. متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك. ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك. عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً...».

وقال عليه السلام أيضاً:

«تعرّفت لكل شيء فما جهلك شيء».

وقال أيضاً:

«تعرّفت إليّ في كل شيء»[1].

إلى غير ذلك مما ورد عنهم عليهم السلام في هذا المعنى، ثم يمكن أن يزيد الإنكشاف في الآخرة بقدر زيادة صفاء القلوب.

فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا، فلا تنفكّ عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة. فمنها ما تراكم عليها الخبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها، فلا تقبل الإصلاح والتصقيل. وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد نعوذ بالله منهم.

ومنها ما لم ينته إلى حدّ الرّين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل، فيعرض على النار عرضاً لكي يطهّر من الخبائث التي هو

(١) دعاء عرفة: الإمام الحسين.

متدنس بها. ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة. ولا ترتحل النفس عن هذا العالم إلا وتصحبها غبرة وكدورة ما وإن قلّت.

ولذلك قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[(١)].

فكل نفس مستيقنة الورود على النار وغير مستيقنة الصدور عنها. حتى إذا أكمل الله عز وجل تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ من العرض والحساب وغيره كان له عند ذلك استحقاق الجنة. وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه. فهو واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول. فعند ذلك لا ترهق وجهه غبرة ولا قترة فيتجلّى له الحق سبحانه وتعالى، وهذه المشاهدة والتجلّي هي التي تسمى «الرؤية».

فالرؤية إذاً حق بشرط أن لا يفهم منها استكمال الخيال في متخيّل مخصوص بجهة ومكان. فإن ذلك مما يتعالى عنه ربّ الأرباب علوّاً كبيراً. بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر وتقدير شكل؛ تراه في الآخرة كذلك.

فالمعرفة الحاصلة في الدنيا هي بعينها التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة. فلا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح.

وبالجملة فالله سبحانه بذاته وجميع صفاته ـ كما وصف نفسه في

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

كتابه وأخبر عنه نبيه ﷺ - منزّه ومقدّس عن الشبه والمثل. لا تشبه ذاته سائر الذوات ولا صفاته جميع الصفات. وأنّى يشبه ربّ أزلي حيّ قيوم أبديّ فرد وترٌ أحديّ لم يزل متصفاً بصفاته العليا متسمّياً بأسمائه الحسنى، إلهاً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً؛ مخلوقاً عاجزاً محدثاً مكوّناً لم يكن في الأصل شيئاً، فخلقه بقدرته وأنشأه كما شاء بحكمته، وأحدث فيه صفات ناقصة غير مستقيمة، فوكل به أنواع الآفات وفنون النقائص والعاهات من البلايا المتنوّعة والفتن والمحن؛ كالجوع والعطش والغلق والشبق والحيرة والضجر والقلق والأدواء والأمراض والعلل والأسقام إلى ما لا يتناهى.

ثم أرهقه ورود مورد الممات وجرّعه مرارة كأس الوفاة، وجعله على أثر ذلك رهين الجدث والتراب إلى وقت العرض والحساب. ثم يبعثه في يوم يكلُّ اللسان عن وصف أحواله، ويعجز البيان دون حصر أحواله لمواقف ومقامات يفرغ عنها معشر الصديقين والأولياء بل خيار الرسل والأنبياء، وهلمّ جرًّا إلى أن يسكنه بحبوحة الجنان مع الرّوح والريحان والراحة والرضوان. أو يحبسه في حصير جهنم وأركان النيران بالخزي والهوان والشقاء والخذلان.

فليت شعري من أين يتصوّر ههنا مماثلة أو كيف يمكن بين خالق وصفناه ومخلوق ذكرناه مشاكلة، تعالى الله عما يقول الظالمون المشركون والمشبّهة والممثّلة والمعطلون علوّاً كبيراً.

نعم اقتضت الحكمة الأزلية والإرادة الأحدية الإيجاد والإبداع والإنشاء والاختراع، فأنشأ أصناف الخليقة وأوجد أنواع البريّة على وفق مراده ومشيّته دون سابقة مثال في تكوين الكون. وقسّم بني آدم قسمين وذرأهم من قبل الطاعة والمعصية إلى فرقتين أشقياء وسعداء، مهتدين وأغوياء. فنوّر أهل السعادة في هذه الحياة بنور المعرفة والإيمان، وترك

أهل الشقاوة في غمرات ظلمة الكفر والطغيان. ثم في دار البقاء ومقام الرؤية واللقاء يتم لأهل السعادة ذلك النور والضياء، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾(١).

فتمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف، ولهذا لا يفوز بدرجة الرؤية والنظر إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر التي تنقلب في الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعاً. ومن لا نواة له فكيف يحصل له نخل، ومن لم يزرع البذر كيف يحصل على الزّرع.

وكذلك من لم يعرف الله عز وجل في الدنيا فكيف يراه في الآخرة. ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلّي أيضاً على درجات متفاوتة. فاختلاف التجلّي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر، إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلّتها وحسنها ورديّها وقوتها وضعفها.

وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذّة الرئاسة على المنكوح والمطعوم، وترى من يؤثر لذّة العلم وانكشاف ملكوت السماوات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرئاسة وعلى المنكوح والمشروب جميعاً. فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى المنكوح والمشروب. وهؤلاء هم بعينهم الذين وصفنا حالهم في الدنيا بأنهم يؤثرون لذّة المعرفة والعلم والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمشروب، وسائر الخلق مشغولون بهما.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.

ولذلك لما قيل لرابعة: ما تقولين في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار.

فبيّنت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة. فكل من لم يعرف الله عز وجل في الدنيا لن يراه في الآخرة. وكل من لم يجد لذّة المعرفة في الدنيا فلن يجد لذّة النظر في الآخرة.

فلا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه. فما صحبه الإنسان من المعرفة في عالم الدنيا هو عينه الذي يتنعم به في الآخرة، حيث تنقلب هذه المعرفة إلى مشاهدة عند كشف الغطاء، فتتضاعف اللذة، كما تتضاعف لذة العاشق إذا ما استبدل تخيل صورة المعشوق برؤية صورته عياناً، فإن ذلك منتهى لذّته.

وميزة الجنة أن لكل واحد فيها ما يشتهي، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله عز وجل فلا لذّة له غيرها.

إذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى، وحب الله تعالى بقدر معرفته. فأصل السعادات هي المعرفة التي عبّر عنها الشرع بالإيمان.

وللعارفين في معرفتهم ومناجاتهم لله عز وجل لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها لذّة الجنة. ثم هذه اللّذّة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذّة اللقاء والمشاهدة. ولإظهار عظم التفاوت بينهما نضرب المثال التالي فنقول:

إن لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت لعدة أسباب:

- **الأول**: جمال المعشوق ونقصانه. فإن لذّة النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة.

- **الثاني**: كمال قوة الحب والشهوة والعشق. فليست لذّة من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه.

ـ **الثالث**: كمال الإدراك. فليس التذاذه برؤية المعشوق في الظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذاذه بإدراكه عن قرب ومن غير ستر وعند كمال الضوء.

ـ **الرابع**: اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب. فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرّد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور. أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بهمّ ما.

والآن افترض وجود عاشق ضعيف العشق، ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق ومن على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته، وقد اجتمعت عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه. فهو في هذه الحالة وإن كان لا يخلو من لذة ما من مشاهدة معشوقه، إلا أنه لو طرأ أمرٌ انهتك به الستر وأشرق به الضوء واندفعت عنه المؤذيات وبقي سالماً، وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات، فانظر كيف تتضاعف اللذّة.

ومن خلال هذا المثال يمكنك فهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة. فالستر الرقيق هو مثال للبدن والاشتغال به. والعقارب والزنابير مثال للشهوات المسلّطة على الإنسان، من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن. وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى، والتفاتها إلى أسفل سافلين. وهو مثال قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرئاسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور.

فالعارف إن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوِّشات، ولا يتصوّر أن يخلو عنها البتة. نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم، فعندها يلوح من جمال المعرفة ما يدهش العقل ويعظم لذّته بحيث يكاد القلب يتفطّر لعظمته. ولكن ذلك يكون كالبرق

الخاطف وقلّما يدوم. بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوّشه وينغّصه. وهذه الضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية، فلا تزال هذه اللذّة منغّصة إلى الموت. وإنما الحياة الطيبة تكون بعد الموت، وإنما العيش عيش الآخرة فإن:

﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله عز وجل فيحب الموت ولا يكرهه، إلا من حيث إنه ينتظر زيادة استكمال المعرفة. فالمعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له والإحاطة بكنه جلال الله محال. وكلما كثرت المعرفة بالله عز وجل وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته وقويت؛ كَثُر النعيم في الآخرة وعَظُم. كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن أيضاً. ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا. ولا زرع إلا في صعيد القلب، ولا حصاد إلا في الآخرة. ولذلك قال النبي ﷺ:

«أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله عز وجل»[(١)].

لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على الذكر وطول المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرّد للطلب.

وهذا ما يستدعي زماناً لا محالة. ومن أحب الموت أحبّه لأنه رأى نفسه واثقاً في المعرفة، بالغاً إلى منتهى ما يسّر له. ومن كره الموت كرهه لأنه كان يأمل مزيد معرفة يمكن أن تحصل له بطول العمر. فهذا سبب كراهة الموت وحبّه عند أهل المعرفة.

---

(١) الجامع الصغير.

وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا، التي إن اتسعت اختاروا البقاء، وإن ضاقت تمنوا الموت. وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة. فالجهل والغفلة مغرس كل خطيئة وشقاوة. والعلم والمعرفة أساس كل سعادة.

أما أن هذه الرؤية أين محلها، هل هي العين أو القلب؟

الحق فيما أشرنا إليه وصحت رواية عن أهل البيت عليهم السلام، العارفين بأسرار النبوة الذين هم مهابط الوحي ومختلف الملائكة؛ وهو أن ذلك إنما يكون بالقلب فحسب دون العين، وأن رؤية العين في حق الله تعالى محال سواء في الدنيا أو الآخرة. وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عما يروون من الرؤية فقال عليه السلام:

«الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب»(١).

وعن أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس فكتب:

«لا يجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر. فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية

---

(١) الكافي: ج١، باب إبطال الرؤية.

وجب الاشتباه، وكان ذلك التشبيه لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسبّبات».

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قالعليه السلام:

«نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة».

فقلت: متى؟

قالعليه السلام: حين قال لهم: ألست بربكم قالوا: بلى، ثم سكت ساعة وقال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة. ألست تراه في وقتك هذا. قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك فأُحدِّث بهذا عنك؟.

قالعليه السلام: لا، فإنك إن حدّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقول ثم قدّر أن ذلك تشبيه وكفر. وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون.

الأسباب المقوّية لحب الله

إن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله. فالآخرة معناها القدوم على الله عز وجل، وإدراك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحبّ إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، والتمكن من دوام مشاهدته من غير منغص ومكدّر ومن غير رقيب ومزاحم، ومن غير خوف انقطاع.

إلا أن هذا النعيم يكون على قدر قوة الحب. فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة. وإنما يكتسب العبد حب الله عز وجل في الدنيا، وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة.

وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقاً، فذلك ينفكُّ عنه الأكثرون. وهذا الحب والعشق لله يحصل بسببين:

الأول: قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب:

فإن القلب مثل الإناء الذي لا يتّسع للخل ما لم يخرج منه الماء. قال تعالى:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾.

وكمال الحب في أن يحب الإنسان الله عز وجل بكل قلبه. أما لو كان لا يزال يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره. وبقدر ما

يشتغل القلب بغير الله بقدر ما ينقص منه حب الله. وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(١).

وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾(٢) بل هو معنى قولك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. أي لا معبود ولا محبوب سواه، وكل محبوب معبود.

فالعبد هو المتعبّد والمعبود هو المتعبّد له وكل محبّ فهو عابد لما يحبّه ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾(٣) وقال عليه السلام: «أبغض إله عبد في الأرض الهوى»(٤) ولذلك قال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»(٥).

ومعنى الإخلاص أن يخلّص العبد قلبه لله عز وجل فلا يبقى فيه شركة لغيره تعالى، فيكون الله هو وحده محبوب قلبه ومعبوده ومقصوده. ومن هذا حاله فالدنيا سجنه، لأنها مانعته عن مشاهدة محبوبه. وأما موته فهو خلاصه من هذا السجن ووفودٌ على المحبوب.

إذن أحد أسباب ضعف حب الله في القلوب؛ قوة حب الدنيا، ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقارات والدواب والبساتين والمتنزهات. فبقدر ما يأنس الإنسان بالدنيا ينقص أنسه بالله. ولا يؤتى أحد شيئاً من الدنيا إلا وينقص بقدره من الآخرة. كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد عن المغرب بقدره.

فالدنيا والآخرة ضرتان، وهما كالمشرق والمغرب. وقد انكشف

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٤) أخرجه الطبراني.

(٥) التوحيد: الصدوق، باب ثواب الموحدين والعارفين.

ذلك لذوي القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين.

أما سبيل قلع حب الدنيا من القلب فهو بسلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء. فالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة، وهو تطهير القلب وتخليته من غير الله.

وهذه الطهارة تحصل من خلال الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار. ثم يتشعب منه الخوف والرجاء، وينشعب منهما التوبة والصبر، ثم ينجرّ ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا. حتى تحصل في النهاية طهارة القلب ليتسع بعدها لنزول معرفة الله عز وجل وحبه فيه. فهذه كلها مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «الطهور شرط الإيمان»[1].

الثاني: قوة معرفة الله واتساعها واستيلاؤها على القلب:

إن قوة المعرفة واتساعها تحصل بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها. وذلك يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش. ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2] وإليها الإشارة بقوله تعالى:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ (أي المعرفة) وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم: ج١، ص١٤٠.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٠.

والعمل الصالح إنما يكون في تطهير القلب أولاً من الدنيا، ومن ثم المداومة على طهارته. فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة، وأما العلم بكيفية العمل فيراد لأجل العمل. فالعلم هو الأول والآخر. فعلم المعاملة هو الأوّل وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته حتى يتضح فيه جليّة الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة. وإذا حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة مباشرة. كالذي أبصر أمراً جميلاً وأدركه بعينه الظاهرة فأحبه ومال إليه، وحصلت له جراء هذا الحب اللذّة. فاللذة إذاً تتبع المحبة بالضرورة، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة أيضاً. ولا يتوصل إلى هذه المعرفة إلا بعد قطع شواغل الدنيا من القلب بواسطة الفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله وفي صفاته وملكوت سماواته وسائر مخلوقاته.

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى:

١ ـ أقوياء: تكون أوّل معرفتهم بالله تعالى ثم به يعرفون غيره.

٢ ـ ضعفاء: تكون أوّل معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل.

وإلى الأقوياء الإشارة بقوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

وبقوله:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٢).

ومنه نظر بعضهم حيث قيل له: بم عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربّي.

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

وإلى الضعفاء الإشارة بقوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾[1].

وبقوله:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2].

وبقوله:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3].

وبقوله:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[4].

وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين. وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتذكر والتفكر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

أما الطريق الأعلى وهو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة من إيراده في الكتاب. وأما الطريق الأسهل فأكثره غير خارج عن حدّ الأفهام. وإنما قصُرَت أفهام الناس عنها لإعراضهم عن التدبر واشتغالهم بشهوات الدنيا وحظوظ النفس من جهة. ومن جهة أخرى لاتساع هذا الطريق وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية. إذ ما من

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٤) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

ذرّة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلا فيها عجائب وآيات تدل على كمال قدرة الله عز وجل وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى. يقول الله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾.

فالغوص فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة، فلا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة، ولكن يمكن الرمز إليه بمثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه فنقول: إن أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال، والأفعال الإلهية كثيرة، أقلها الأرض وما عليها، أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السماوات. والشمس على ما ترى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة. فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إلى الشمس. ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هي مركوزة فيه، فإنه لا نسبة لها إليه، وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السماوات.

ثم السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة والكرسي في العرش كذلك.

ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض. ودع عنك جميع ذلك فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنمل وما يجري مجراهما، فانظر إلى البعوض على صغر قدره، وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف، وانظر كيف خلقه الله تعالى. ففي كل حيوان ونبات أعجوبة وعجائب تخصّها لا يشاركها فيها غيرها. فانظر إلى النحل وعجائبه وكيف أوحى الله عز وجل إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل

وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء. ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار واحترازها عن النجاسات والأقذار، وطاعتها لواحد من صنفها هو أكبرهم شخصاً وهو أميرهم. ثم ما سخّر الله لأميرهم من العدل والإنصاف، حتى أنه ليقتل على باب الخليّة كل ما وقع منها على نجاسة.

ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها لبيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدّس. فلا تبني بيتها مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً، بل مسدساً لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستدير، وما يقرب منه فإن المربع يخرج منها زوايا ضائعة، وشكل النحل مستدير مستطيل، فتركت المربع حتى لا يضيع الزوايا فتبقى فارغة، ثم لو بنتها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة. ولا يوجد شكل من الأشكال من ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراص صفوفها بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فراغات ضائعة إلا الشكل المسدس.

فانظر كيف ألهم الله عز وجل النحل على صغر حجمه ولطافة قدِّه لطفاً به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنّأ عيشه. فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه.

فاعتبر بهذه اللّمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسماوات. فإن القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه. ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به علم العلماء والأنبياء. ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله عز وجل بعلمه. بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمّى علماً في جنب علم الله تعالى.

فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة. فإن كنت طالباً سعادة لقاء الله تعالى، فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الفكر الدائم والذكر اللازم، عسى أن تحظى منها بقدر يسير، تنال من ذلك القدر اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له.

سبب تفاوت الناس في الحب

إن المؤمنين مشتركون في أصل المحبة لاشتراكهم في أصل الإيمان ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم:

- **أولاً**: في المعرفة.
- **ثانياً**: في حب الدنيا.

إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها، وأكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم، فتلقفوها وحفظوها. وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها ربّ الأرباب. وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث. وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم المقربون. وقد ذكر الله عز وجل حال الأصناف الثلاثة في قوله:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[1].

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٨٨ ـ ٩٦.

ولتوضيح الفكرة أكثر نضرب المثل التالي عن تفاوت الحب: أصحاب الإمام مثلاً مشتركون في حبه، سواء العلماء منهم أو العوام، لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله.

ولكن العاميّ يعرف علم الإمام بشكل إجمالي، والفقيه يعرفه مفصلاً. فتكون معرفة الفقيه به أتمّ وإعجابه به وحبه له أشدّ.

ومن رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال إليه قلبه. فإن رأى تصنيفاً آخر له أحسن منه وأعجب به؛ تضاعف حبه وقوي ميله إليه أكثر.

فالعامي قد يسمع أنّ فلاناً مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في هذا التصنيف فتكون معرفته به مجملة، ويكون له بحسبه ميل مجمل. أما البصير إذا فتّش عن هذه التصانيف واطلع على ما فيها من عجائب تضاعف حبّه لا محالة، لأن عجائب الصفة والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف.

والعالم بجملته صنع الله وتصنيفه، والعامي يعلم ذلك ويعتقده، أما البصير فإنه يطالب بتفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله ويتحيّر فيه لبّه، فتزداد عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه، فيزداد له حبًّا.

وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعاً استدل به على عظمة الصانع وجلاله، فازداد به معرفة وله حباً. وبحر معرفة عجائب صنع الله لا ساحل له، فلا جرم صار تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصر له أيضاً.

ومما يكون سبباً لتفاوت الحب أيضاً، اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب. فإن من يحب الله مثلاً لكونه محسناً إليه ومنعماً عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته، لأنها تتغير بتغير الإحسان. فلا

يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرخاء والنعماء.

وأما من يحبه لذاته أو لأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته، فإنه لا يتفاوت حبّه بتفاوت الإحسان إليه.

فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة، والتفاوت في المحبة هو سبب التفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى:

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢١.

أسباب قصور أفهام الخلق عن معرفة الله

إن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله عز وجل، وهذا ما كان يقتضي أن تكون معرفته أوّل المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول، ولكن نرى الأمر على العكس من ذلك. فما هو السبب في ذلك؟

وللإجابة نضرب هذا المثال: وهو أننا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط، كانت حياته وعلمه وقدرته وإرادته للكتابة أو الخياطة من أظهر الأمور عندنا، بل هي أظهر من صفاته الظاهرة والباطنة. إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وحلمه وصحته ومرضه غير معروفة لدينا، وكذا صفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها الآخر نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك..

أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً فإنه جليّ عندنا، من غير أن تتدخل حواسنا في ذلك لأن الحياة والقدرة والإرادة صفات لا تحس ولا تدرك بشيء من الحواس الخمس.

ثم لا يمكننا معرفة حياته وقدرته وإرادته إلا من خلال خياطته وحركاته. ولو نظرنا إلى كل ما سواه في هذا العالم لم نعرف به صفات هذا الخياط. وكذلك الأمر بالنسبة إلى وجود الله وقدرته وعلمه وسائر صفاته، فهي يشهد عليها وعلى وجودها كل ما نشاهده وندركه في هذا

العالم بالحواس الظاهرة والباطنة؛ من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وماء وأرض وكواكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض.

بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلّب أحوالنا وتغيّر قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا.

وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة على وجود خالقها ومدبرها ومصرّفها ومحركها. وهي دالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته، والموجودات المدركة لا حصر لها.

فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد له إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده، فكيف لا يظهر عندنا ولا يكون معروفاً لدينا من لا يتصوّر في الوجود شيء - داخل نفوسنا وخارجها - إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله. إذ كل ذرة من ذرات هذا الوجود تنادي ولسان حالها أنه ليس وجودها من نفسها ولا حركتها من ذاتها، وأنها محتاجة إلى موجد ومحرّك لها. ويشهد على ذلك تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة.

فإننا نعلم أنها لم تأتلف بنفسها، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرّك بنفسها. ولكن لما لم يبق في الوجود مدركٌ ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد على وجوده ومعرّف عليه؛ انبهرت العقول ودهشت عن إدراكه. إذن ما كان سبباً في قصور عقولنا عن فهمه أمران:

الأول: خفاؤه في نفسه وغموضه، وهذا مثاله لا يخفى.

الثاني: ما يتناهى وضوحه. وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره ولكن لشدة ظهوره. فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوة ظهوره مع

ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره. فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الظلام بالضوء وضعف ظهوره.

وكذلك عقولنا فهي ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى أنه لم يشذ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه. فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره. ولا تتعجب من كيفية اختفائه بسبب شدة ظهوره فإن الأشياء تستبان وتعرف بأضدادها. فما عمّ وجوده حتى لم يكن له ضد عسر إدراكه. أما لو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون البعض فإن التفرقة تدرك عن قرب، وإذا اشتركت في الدلالة فكانت على نسق واحد أشكل الأمر.

ومثاله: نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أن نور الشمس عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس. فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظن أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما. فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض، أما الضوء فلا ندركه وحده، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا الفرق بين الحالتين. فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بالضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب. فعرفنا وجود النور بعدمه. وما كنا لنطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد.

هذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات. فانظر إذاً إلى النور ـ وهو ظاهر في نفسه ومظهر لغيره ـ كيف خفي أمره فصار مبهماً بسبب شدة ظهوره ولولا غياب الشمس وطرو الظلام لما استبان أمره.

والرب تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغيّر لانهدت السماوات والأرض وبطل الملك والملكوت. ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة. ولكن دلالته عامة في الأشياء وعلى نسق واحد، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه. فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء. فهذا هو السبب في قصور الأفهام.

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله ولا يعرف غيره، ويعلم أنه ليس في الوجود إلا الله وأفعاله. وأن أفعاله أثر من آثار قدرته، فهي تابعة له ولا وجود لها في الحقيقة من دونه. وإنما الوجود الواحد هو الحق الذي به وجود الأفعال كلها. ومن هذا حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل الحقيقي وهو الحق تعالى، فيذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر فينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق. فلا يكون نظره مجاوزاً إلى غيره.

فكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله، وعرفه من حيث إنه فعل الله، وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظراً إلا في الله ولا عارفاً إلا بالله ولا محباً إلا له.

وكان هو الموحّد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله. وهذا هو معنى قولهم: أنه فني في التوحيد وأنه فني من نفسه.

فهذه حقائق معلومة عند ذوي البصائر ولكنها أشكلت عند ضعفاء الأفهام. وإشكالها إما لضعف الأفهام أو لاشتغالهم بأنفسهم، واعتقادهم أن بيان هذه الحقائق لغيرهم لا يعنيهم.

فهذه هي أسباب قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى. وانضم إليها

أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصِّبا عند فقد العقل ثم تظهر فيه غريزة العقل قليلاً وهو مستغرق الهم بشهواته، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه لطول الأنس بها. ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيواناً غريباً أو نباتاً غريباً أو فعلاً من أفعال الله خارقاً للعادة عجيباً؛ انطلق لسانه بالمعرفة فقال: سبحان الله. رغم أنه يرى طول النهار وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة إلا أنه لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها. ولو فرض أن أكمهاً انقشعت الغشاوة عن عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة فإنه في هذه اللحظة يخاف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب. فهذه وأمثالها من الأسباب مع الإنهماك في الشهوات هي التي سدّت على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة. فالناس في طلبهم معرفة الله تعالى كالمدهوش الذي يضرب به المثل أنه كان راكباً حماره وهو يطلبه. فالأمور الجليّة إذا صارت مطلوبة صارت عصيّة وممتنعة. ولذلك قيل:

فقد ظهرت فلا تخفى على أحد   إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً   وكيف يعرف من بالعرف قد سترا

معنى الشوق إلى الله وطرق إثباته

إن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق، إذ لا يتصوّر الشوق إلا إلى المحبوب. ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى بطريقين:

١ ـ طريق الاعتبار:

ويكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحب. وكل محبوب فهو مشتاق إليه عند غيابه، أما ما هو حاضر فلا يشتاق إليه. فإن الشوق طلب وتشوّف إلى نيل أمر غائب أما الموجود فلا يطلب.

والشوق لا يتصوّر إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه آخر. أما ما لا يدرك أصلاً فلا يشتاق إليه. فمن لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يُتصور أن يشتاق إليه. وكذلك الأمر بالنسبة لما أدرك بشكله الكامل فإنه لا يشتاق إليه أيضاً، وكمال الإدراك بالرؤية؛ فمن كان مداوماً على مشاهدة محبوبه لا يتصور أن يشتاق إليه، إنما يتعلق الشوق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو على وجهين:

الأول: أن يتضح الشيء اتضاحاً ما ولكنه يحتاج إلى استكمال.

فمن غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله، فإنه يشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية. أما لو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق إليه، ولو رآه لم يتصوّر أن يشتاق إلى معرفته.

فمعنى شوقه تشوّف نفسه إلى استكمال خياله، ولذلك قد يراه في الظلمة بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته، وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه.

الثاني: أن يرى وجه محبوبه ولكن دون أن يرى شعره ولا سائر محاسنه ولا سائر أعضائه فيشتاق إلى رؤيته وإلى رؤية محاسنه وإن لم يرها أو حتى تخيلها، ولكنه يعلم أن له أعضاء جميلة لم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية، فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط.

وكلا الوجهين متصورين في حق الله تعالى، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين. فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح إلا أنّه كأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات. فالخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لذا كانت من المكدرات والمنغصات بالنسبة للعارف. ويضاف إليها كذلك شواغل الدنيا.

أما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلي فلا يكون إلا في الآخرة. وذلك ما يوجب الشوق إليها. فهذا هو أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحاً ما.

وبالنسبة للوجه الثاني؛ فإن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة، والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال مشتاقاً إلى أن تحصل له المعرفة بما بقي له من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة.

والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة إلى ما يسمى بالرؤية واللقاء

والمشاهدة ولا يتصور أن يسكن هذا الشوق في الدنيا.

وأما الشوق الثاني فلا نهاية له في الدنيا ولا في الآخرة. إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله وصفاته وأحكامه وأفعاله، ما هو معلوم لله وهو محال. لأن ذلك لا نهاية له. فالعبد يرى دائماً أنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له، فلا يسكن شوقه قط. لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة، فيشتاق إلى استكمال الوضوح مع حصول أصل الوصال. فيجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية. فلا يزال النعيم واللذّة متزايداً أبد الآباد. وهذا بشرط أن يكون قد حصل أصل التزوّد في عالم الدنيا. ويدل عليه قوله تعالى:

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[1].

حيث ينعم الله تعالى على المؤمنين بإتمام نورهم بعد التزوّد من الدنيا بأصل النور. وقوله تعالى:

﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾[2].

يدل على أن الأنوار لا بد أن يتزوّد أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقاً.

٢ ـ طريق النظر في الأخبار:

أما شواهد الأخبار والآثار فهي أكثر من أن تحصى. منها ما اشتهر من دعاء رسول الله ﷺ أنه كان يقول:

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٣.

«اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وشوقاً إلى لقائك»(١).

وفي أخبار داودعليه السلام أن الله عز وجل قال:

يا داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومونس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني. ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حباً لا يتقدمه أحدٌ من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلمّوا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي. وأنسوا بي أؤنسكم وأسرع إلى محبتكم فإني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعّمتها بجلالي».

ومن أخبار داودعليه السلام أيضاً أن الله تعالى أوحى إليه يقول:

«يا داود إلى كم. تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إليّ. قال: يا رب من المشتاقون إليك؟ قال: إن المشتاقين إليّ الذين صفّيتهم من كل كدر وأنبتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم خرقاً ينظرون إليّ. وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي ثم أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي فأقول:

إني لم أجمعكم لتسجدوا لي ولكن دعوتكم لأعرض

(١) أخرجه أحمد والحاكم في المستدرك: ج١، ص٥٢٤.

عليكم قلوب المشتاقين إليّ وأباهي بكم أهل الشوق إلي، وإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض.

يا داود إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي واتخذتهم لنفسي محدّثينٌ وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إليّ يزدادون في كل يوم شوقاً.

قال داود: يا رب أرني أهل محبتك.

فقال: يا داود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبان وفيهم كهول وفيهم مشايخ. فإذا أتيتهم فأقرئهم مني السلام وقل لهم:

إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم. فأتاهم داود فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله تعالى وملكوته، فلما نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال لهم داود: إني رسول الله إليكم جئتكم لأبلّغكم رسالة ربكم. فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض فقال داود:

إني رسول الله إليكم وهو يقرئكم السلام ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة، ألا تنادوني فأسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة، قال: فجرت الدموع

على خدودهم، فقال شيخهم: سبحانك سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عمرنا. وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك، وقال الآخر: سبحانك سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترىء على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا، فأدم لنا لزوم الطريق إليك، وأتمم بذلك المنّة علينا. وقال الآخر: نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا عليه بجودك. وقال الآخر: ألا من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك أفيجرؤ على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك وطلبتنا الدنو من نورك.

وقال الآخر: كلّت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك وكثرة مننك على أهل محبتك.

وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للإشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك.

وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك. وقال الآخر: كيف يجترىء العبد على سيده، فإذا أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نوراً نهتدي به في الظلمات بين أطباق السماوات.

وقال الآخر: ندعوكِ أن تُقبل علينا وتديمه علينا. وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا. وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيء من خلقك

فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك.

وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمى عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة.

وقال الآخر: قد عرفناك أنك تباركت وتعاليت تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك. فأوحى الله تعالى إلى داود قل لهم: قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم، فليفارق كل واحد منكم صاحبه، وليتخذ لنفسه سرباً، فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي.

فقال داود: يا رب بِمَ نالوا منك هذا؟

قال: بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بي ومناجاتهم لي. وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها، وفرّغ قلبه لي واختارني على جميع خلقي. فعند ذلك أعطف عليه فأفرغ نفسه له وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إليّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء، وأريه كرامتي في كل ساعة، وأقرّبه من نور وجهي. إن مرض مرّضته كما تمرّض الوالدة الشفيقة ولدها وإن عطش أرويته وأذقته طعم ذكري. فإذا فعلت ذلك به يا داود عزفت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لئلا تصدّه عن الاشتغال بي. يستعجلني بالقدوم عليّ وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي. لا يرى غيري ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت

نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكري، أباهي به ملائكتي، وأهل سماواتي تزداد خوفاً وعبادة.

وعزتي وجلالي يا داود لأقعدنه في الفردوس ولأشفينّ صدره من النظر إليّ حتى يرضى وفوق الرضا».

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا يلتذ شراباً ولا يستطيب رقاداً ولا يأنس حميماً ولا يأوي داراً ولا يسكن عمراناً ولا يلبس ليناً ولا يقرّ قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه، ويناجيه بلسان شوقه معبراً عما في سريرته، كما أخبر الله عن موسى بن عمران عليه السلام في ميعاد ربه بقوله:

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[1].

وفسّر النبي صلى الله عليه وآله عن حاله أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربّه.

فإذا دخلت ميدان الشوق فكبّر على نفسك ومرادك من الدنيا، ودع المألوفات واحرم عن سوى مشوّقك، ولبِّ بين حياتك وموتك لبّيك اللهم لبّيك، وأعظم الله تعالى أجرك، ومثل المشتاق مثل الغريق ليس له همّة إلا خلاصه وقد نسي كل شيء دونه»[2].

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٤.

(٢) مصباح الشريعة: الباب ٩٨.

علامات محبة الله للعبد

إن شواهد القرآن الكريم متظاهرة على أن الله عز وجل يحب عبده، لذا كان لا بد من معرفة معنى هذا الحب. وكشواهد على محبته قال الله تعالى:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾(١).

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾(٢).

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٣). ولذلك ردّ سبحانه وتعالى على من ادّعى أنه حبيب الله فقال:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾(٤).

وروي عن النبيﷺ أنه قال:

«إذا أحب الله عبداً لم يضرّه ذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾»(٥).

ومعناه أنه إذا أحب الله عبداً ما تاب عليه قبل الموت، فلم تضرّه

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الصف، الآية: ٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٨.
(٥) رواه صاحب الفردوس.

الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام.
وقد اشترط الله للمحبة غفران الذنب فقال:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ:

«إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»[2].

وقال ﷺ:

«من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله»[3].

وقال ﷺ إخباراً عن ربّه:

«لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به..»[4].

وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر وقد ذكرنا أن محبة العبد لله عز وجل حقيقة وليست بمجاز. فالمحبة عبارة عن الميل إلى الشيء الموافق والعشق عبارة عن الميل المفرط الغالب.

وقد بيّنا سابقاً أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضاً، وأن الجمال والإحسان تارة يدركان بالبصر وتارة بالبصيرة، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج١، ص٣٣.

(٣) أخرجه ابن ماجة.

(٤) الكافي.

أما حب الله تعالى للعبد فلا تدرك حقيقته بعقولنا وأفهامنا، فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً. بل إن الأسماء كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تطلق بمعنى واحد. حتى اسم الوجود الذي هو أعمّ الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد. لأن كل ما سوى الله فوجوده مستفاد من وجود الله. فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع. وإنما الاستواء في مجرد إطلاق الاسم. كاشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم فقط. والأمر نفسه بل هو أظهر بالنسبة للعلم والإرادة والقدرة وغيرها، فكل ذلك لا يشبه فيه الخلق الخالق، فإن الخالق في ذاته وفي جميع صفاته منزّه ومقدس عن مشابهة المخلوق.

والمحبة أيضاً التي قلنا إنها عبارة عن ميل النفس إلى الموافق والملائم إنما يتصور وقوعها في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها، والتي تستفيد من هذا الحب لنيل كمال ما تستلذ به، وهذا كلّه محال على الله عز وجل.

فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن بالنسبة للذات المقدسة الإلهية فهو حاضر وحاصل بل وواجب الحصول أبداً وأزلاً ولا يتصوّر تجدده أو زواله. فالله عز وجل لا يحب إلا نفسه وما ورد من الألفاظ في حبّه لعباده فهو مُأوَّل يرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلب العبد حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه إياه من القرب منه، وإلى تطهير باطنه من حلول الغير فيه، وإلى تفريغه وتخليته من العلائق والعوائق التي تحول بينه وبين مولاه. حتى يصل إلى مقام لا يسمع فيه إلا بالحق ومن الحق، ولا يبصر إلا به ولا ينطق إلا به. كما قال النبي الأكرمﷺ حكاية عن ربه سبحانه:

«لا يزال العبد يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و. . .».

فيكون التقرب بالنوافل سبباً لصفاء باطن العبد وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله على درجة القرب من الرب. وكل ذلك بفضل من الله عز وجل ولطفه.

فالحبيب هو القريب من الله تعالى، والقرب من الله تعالى يكون بالبعد عن صفات البهائم والسباع والشياطين، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية.

فالعبد كلما صار أكمل صفة وأتم علماً وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشياطين وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل، صار أقرب من درجة الكمال، ومنتهى الكمال لله تعالى، وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله.

فدرجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أصلاً لانتفاء النهاية عن ذلك الكمال. إذن محبة الله للعبد؛ تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه من كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه. وأما محبة العبد لله تعالى فهو ميله إلى إدراك هذا الكمال الذي هو فاقد له، فلا جرم أنه سيشتاق إلى ما فاته، وإذا أدرك منه شيئاً يلتذ به. والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى.

□ علامات حب الله للعبد:

يستدل على حب الله تعالى للعبد بعلامات منها ما ذكرهﷺ:

«إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن أحبّه الحب البالغ اقتناه، قيل: وما اقتناؤه؟ قال لم يترك له مالاً ولا أهلاً»[1].

---

(١) الطبراني في حديث أبي عتبة الخولاني.

فعلامة محبة الله تعالى للعبد أن يوحشه من غيره، ويحول بينه وبين غيره. وقيل لعيسى ﷺ: ألا تشتري حماراً فتركبه؟ قال: «أنا أعزّ على الله من أن يشغلني عن نفسه بحمار».

وفي الخبر: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه»(١). وقال بعض العلماء: إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك وقال:

«إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه»(٢).

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه»(٣).

وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره، ظاهره، وباطنه، سرّه وجهره، فيكون هو المشير عليه، والمدبّر لأمره والمزيّن لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه، والجاعل همومه هماً واحداً، والمبغّض للدنيا في قلبه، والموحش له من غيره، والمونس له بلذّة المناجاة في خلواته، والكاشف له عن الحجب الحائلة بينه وبين معرفته.

فهذه وأمثالها هي علامات حب الله تعالى للعبد.

---

(١) ذكره صاحب الفردوس.

(٢) الجامع الصغير.

(٣) رواه البيهقي.

علامات محبة العبد لله عز وجل

إن المحبة يدعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعزّ المعنى. فلا ينبغي أن يغترّ الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادّعت محبة الله عز وجل، ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة.

والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر على القلب واللسان والجوارح فتكون علامات وآثاراً دالة على المحبة، كدلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الشجر. وهذه العلامات كثيرة منها:

١ ـ حب الموت:

فمن علامات المحبة، حب العبد للقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام. ولا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه. وإذا علم أنه لا وصول إلى هذا اللقاء إلا بالارتحال عن الدنيا بالموت، فينبغي أن يكون محباً للموت غير فارٍ منه. فالمحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقرّ محبوبه ليتنعم بمشاهدته. والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة. قال النبي الأكرمﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»[1] ولسائل أن يسأل: إنه من لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محباً لله؟ وللإجابة على هذا

(١) صحيح البخاري: ج٨، ص١٣٢.

السؤال ينبغي أن نعلم أن لكراهه الموت سببان:

١ ـ فكراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب. ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة. فإن الناس متفاوتون في الحب، فمنهم من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب غيره أيضا، فيكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبّه، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على حبه لها.

٢ ـ أما السبب الثاني للكراهة، فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة، فهو لا يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله. وهذا لا يدل على ضعف الحب، بل هو كالمحب الذي وصل إليه الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة لعمارة داره وتهيئة أسبابها، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق.

٢ ـ إيثار محبة الله على ما يحبه العبد:

ومن العلامات أن يكون مؤثراً ما أحبّه الله عز وجل على ما يحبّه في ظاهره وباطنه. فيجتنب اتباع الشهوات ويعرض عن دعة الكسل، فلا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى ومتقرباً إليه بالنوافل وطالباً عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه.

وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

ومن بقي مستمراً على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل:

أريد وصاله ويريد هجري ... فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعّم بغير المحبوب، فمن يحب الله لا يعصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمري في الفعال بديعُ
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إن المحبّ لمن يحب مطيعُ

وقيل:

وأترك ما أهوى لما قد هويته ... وأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

إذاً فمن علامات المحبة إيثار المحب من أحبّه على نفسه. وليس كل من عمل بطاعة الله صار حبيباً وإنما الحبيب من اجتنب المناهي. لأن محبة العبد لله سببها محبة الله تعالى له. كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

فإذا أحب الله عبده؛ تولاه ونصره على أعدائه. وإنما عدوه نفسه وشهواته، فالله تعالى لا يخذله ولا يكله إلى نفسه وهواه وشهواته. ولذلك قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾[1].

٣ ـ ذكر الله على الدوام:

ومن العلامات التي تكشف عن حب العبد لله؛ هو ذكره الدائم لله بحيث لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه. فمن أحب شيئاً أكثر ذكره

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٥.

وذكر ما يتعلق به. فعلامة حب الله تعالى حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله ﷺ، وحب كل من ينسب إليه.

فالمحبة إذا قويت تعدَّت من المحبوب إلى كل ما يكتنف المحبوب ويحيط به. وهذا ليس شركة في الحب، فإن من أحبّ رسول المحبوب لأنه رسوله وكلام الرسول لأنه كلام المحبوب لم يكن قد جاوز حبه إلى غيره، بل هو دليل على كمال حبّه. ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه، فيحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين. لذلك قال الله تعالى

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾(١).

وقال النبي الأكرم ﷺ:

«أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لله تعالى».

إذاً من أحب من يحبه الله فقد أحب الله عز وجل. ومن أكرم من يكرمه الله فإنما يكرم الله عز وجل.

٤ ـ كمال الأنس بمناجاة الله والتنعم بالخلوة به:

ومن العلامات أيضاً أن يكون أُنسه بمناجاة الله تعالى والخلوة معه وتلاوة كتابه. فيواظب على التهجد مغتنماً هدوء الليل وصفاء الوقت فيه بانقطاع العوائق. وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة مع الحبيب والتنعم بمناجاته، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله عز وجل لم تصح محبته. ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشاً من الله، ساقطاً عن درجة محبته. وقد جاء في قصة

---

(١) آل عمران، الآية: ٣١.

برخ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام:

إن برخاً نعم العبد هو لي إلا أنّ فيه عيباً. قال: يا رب وما عيبه؟ قال يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه، ومن أحبني لا يسكن إلى شيء.

وروي أن عابداً عبد الله تعالى في غيضة[1] دهراً طويلاً فنظر يوماً إلى طائر وقد عشّش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها. فقال في نفسه: لو حوّلت مسجدي إلى تلك الشجرة فآنس بصوت هذا الطائر، ففعل. فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه أن قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق؛ لأحطّنّك عن درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً.

فعلامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة به، وكمال الاستيحاش من كل ما ينغّص عليه الخلوة ويعوقه عن لذّة المناجاة. وعلامة الأنس بالله أن يصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذة المناجاة التي يخاطب بها معشوقه ويناجيه.

وقد انتهت هذه اللذّة بالإمام السجاد عليه السلام إلى أنه كان في صلاته ووقع حريق في داره فلم يشعر به.

ونزع السهم من رجل أمير المؤمنين عليه السلام وهو قائم يصلي ولم يشعر به أيضاً.

وكلما غلب الحب وقوي الأنس صارت الخلوة والمناجاة ملاذه وقوة عينه، وبها تدفع عنه جميع الهَموم. حتى يستغرق الأنس والحب قلبه فلا يفهم أمور الدنيا ما لم تتكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان، فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه. والمحب من لا يطمئن إلا إلى محبوبه. وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يقول

---

(١) الغيضة: الأجمة، مجتمع الشجر في مغيض الماء.

له: قد كذب من ادعى محبتي، حتى إذا جنّه الليل نام عني، أليس كل محبوب يحب لقاء حبيبه؟ فها أناذا موجود لمن طلبني.

وقال موسى عليه السلام: يا رب أين أنت فأقصدك؟ فقال: إذا قصدتني فقد وصلت.

٥ ـ الرضا بحكم الله وقضائه:

ومن العلامات أيضاً، أن لا يتأسف المحب على ما يفوته مما سوى الله. إنما يعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله وطاعته، فيكون رجوعه عند الغفلة بالاستعطاف والاستعتاب والاستغفار والتوبة. وإلى هذه الحالة أشار بعض العارفين فقال: إن لله عز وجل عباداً أحبوه واطمأنوا إليه، فذهب عنهم التأسف على الفائت، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان قلبهم شاكراً راضياً. فما شاء كان، وما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فلحسن تدبيره لهم. وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ويسأله ويقول: يا رب بأي ذنب قطعت برَّك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعتي الشيطان. فيؤدي ذلك منه إلى صفاء ذكر ورقة قلب يكفّر عنه ما سبق من الغفلة. وتكون هفوته سبباً لتجدد ذكره وصفاء قلبه.

فإذا لم ير المحبّ إلا المحبوب ولم ير الأشياء إلا منه؛ لم يتأسف ولم يشك في أي شيء بل استقبل الحكم والقضاء بالرضا، لأنه يعلم أن المحبوب لم يقدّر له إلا ما فيه الخير له، ويذكر قوله تعالى:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

٦ ـ حب الطاعة وعدم استثقالها أبداً:

ومن العلامات أيضاً أن يكون المحب متنعماً بالطاعة ولا يستثقلها فيسقط عنه تعبها. وكل هذا مثاله موجود في المشاهدات، فإن العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه بل يستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقاً على بدنه. وإذا ما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل بالطاعة من جديد.

وهكذا يكون الأمر أيضاً بالنسبة لحب الله عز وجل. فالحب إذا صار غالباً قهر لا محالة ما دونه. فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل، ومن كان محبوبه أحب إليه من المال ترك المال أيضاً في حبه.

حتى قيل لبعض المحبين وقد بذل ماله ونفسه حتى لم يبق له شيء: ما كان سبب حالك في هذه المحبة؟ فقال: سمعت يوماً محباً ظفر بمحبوبه وهو يقول له: أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كلّه، فقال له المحبوب: إن كنت تحبني فأي شيء تنفقه عليّ؟ فقال: يا سيدي أملكك ما أملك، ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك.

فقلت: هذا حب خلق لخلق وعبد لعبد؛ فكيف بعبد لمعبود، فكل هذا بسببه.

٧ ـ حب عباد الله:

ومنها أيضاً أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، وشديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه الله عز وجل، كما قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(١).

ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف،

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

وبه وصف الله تعالى أولياءه إذ قال في بعض الكتب:

إن الذين يكلّفون بحبي كما يكلّف الصبي بالشيء، ويأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره، ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرد، فإنه لا يبالي قلّ الناس أم كثروا...

فانظر إلى هذا المثال فإن الصبي إذا كلّف بالشيء لم يفارقه أصلاً، فإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يردّ إليه، فإذا نام أخذه معه في ثيابه وإذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده فرح وضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبّه.

وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عن الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أن يهلك نفسه.

فهذه علامات المحبة، من تمت فيه فقد تمت محبته وخلص حبه وصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه. ومن امتزج حبه بحب غير الله، تنعم في الآخرة بقدر حبه، لذا قال الله تعالى في حق الأبرار:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

فمن كان حبه في الدنيا لأجل نيل نعيم الجنة والحور والقصور، يمكّن في الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء، فيكون مع الولدان ويتمتع بالنسوان.

ومن كان مقصده رب الأرباب ومالك الملك لم يغلب عليه الأحبّة، فالإخلاص والصدق ينزلانه في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ٢٢ ـ ٢٨.

فالأبرار يرتعون في البستان ويتنعمون في الجنان مع الحور والولدان. والمقربون يلازمون الحضرة [الإلهية] عاكفون بطرفهم عليها، يستحقرون نعيم الجنان.

٨ ـ أن يكون حبه ممزوجاً بالخوف:

ومن العلامات أيضاً أن يكون المحب خائفاً، لوقوعه تحت تأثير الهيبة والتعظيم. وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وهو ليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب. ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض:

١ ـ **فأولها**: خوف الإعراض.

٢ ـ **ثانيها**: خوف الحجاب.

٣ ـ **ثالثها**: خوف الإبعاد.

وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيّب سيّد المحبين إذ سمع قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[(١)] ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[(٢)] ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[(٣)].

ولا يدرك عظمة البعد وهيبته والخوف منه إلا القلب الذي ألف الحب وذاق طعم القرب وتنعّم به. فحديث البعد في حق المبعدين يشيب أهل القرب. فلا يحنّ إلى القرب من ألف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكّن من بساط القرب.

٤ ـ **رابعها**: خوف الوقوف وسلب المزيد.

---

(١) سورة هود، الآية: ٦٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٦٨.

(٣) سورة هود، الآية: ٩٥.

فإننا قدّمنا أن درجات القرب لا نهاية لها، وحق العبد أن يجتهد لكي يزداد قرباً من الحق. ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون»[1].

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وآله:

«إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرّة».

وروي في بعض الكتب أن الله عز وجل يقول:

«إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوة الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي»[2].

فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعوام، وأما الخواص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مبادي اللطف، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة في العلم.

٥ ـ **خامسها**: خوف السلوّ[3] عنه. فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث، فلا يفتر عن طلب المزيد، ولا يتسلى إلا بلطف جديد. فإن تسلى عن ذلك، كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته. والسلوّ يدخل عليه من حيث لا يشعر كما يدخل الحب عليه من حيث لا يشعر. فإن لهذه التقلبات في القلب أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها.

---

(١) رواه الصدوق في معاني الأخبار: ص٢٤٢.

(٢) كتاب العلل: الصدوق، ج١، ص١٣١.

(٣) السلوّ: النسيان ـ السلوّ عنه: أي طابت نفسه عنه وذهل عن ذكره وهجَرَه.

وإذا أراد الله المكر به واستدراجه، أخفى عنه ما ورد عليه من السلوّ فيقف مع الرجاء ويغترّ بحسن الظن وبغلبة الغفلة والهوى والنسيان. وكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة التي منها العلم والعقل والذكر والثبات. فكما أن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة، كذلك من أوصافه ما يلوح فيورث السلوَّ، كأوصاف الجبرية والعزّة والاستغناء، وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان.

٦ ـ **سادسها**: خوف الاستبدال به، بانتقال القلب من حبّه إلى حب غيره. فيكون المقت والسلوُّ عنه لحصول الاستبدال، والإعراض والاحتجاب مقدمة لحصول السلوّ وضيق الصدر وانقباضه عن دوام الذكر. فظهور هذه الأسباب دليل على حالة الانتقال من مقام الحب إلى مقام المقت، نعوذ بالله منه.

أما ملازمة الخوف من هذه الأسباب وشدة الحذر من الاستبدال بصفاء المراقبة فهي دليل على صدق الحب. فإن من أحب شيئاً خاف لا محالة من فقده، فلا يخلو المحب عن خوفٍ إذا كان المحبوب مما يمكن فواته.

وقد قال بعض العارفين: من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال. ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش. ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبّه الله فقرّبه ومكنّه وعلّمه. والمحب لا يخلو من خوف والخائف لا يخلو من محبة، فإذا غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لها طاقة البشر؛ فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب.

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشرك الناس فيها ولا يجوز أن يظهر من انكشف له شيء منها لمن لم ينكشف له. بل

لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا. فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا.

بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوماً لخربت الدنيا لزهدهم فيها، وبطلت الأسواق والمعايش. بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم. ولكن لله فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم، كما أن له في الخير أسراراً وحكماً، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته.

٩ ـ إخفاء الحب وعدم إظهاره:

ومن العلامات أيضاً كتمان الحب واجتناب الدعوى، والتوقي من إظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيرة على سرّه.

فإن الحب سرّ من أسرار الحبيب. لأنه قد يدخل في إدعاء الحب ما يتجاوز حدّ المعنى ويزيد عليه فيكون من الافتراء، فتعظم العقوبة عليه وتتعجّل عليه البلوى في الدنيا. نعم قد يصل المحب إلى حالة السكر في حبه فيدهش وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه، فإن كان ما وقع منه وظهر من غير اكتساب فهو معذور لأنه مقهور.

فالمحبة محمودة وإظهارها أيضاً محمود، وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار. بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط. أما إرادته اطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه كما ورد في الإنجيل: إذا تصدَّقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك، فالذي يرى الخفيات يجزيك به علانية. وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك.

والمحب إن كان عارفاً بأحوال الملائكة فعرف حبهم الدائم

وشوقهم اللازم الذي به: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبّه، وعلم قطعاً أنه أخسّ المحبين في مملكته وإن حبه أنقص من حب كل محبّ لله.

١٠ ـ الأنس والرضا:

فمن العلامات الأكيدة التي تدل على محبة العبد لله هي أنسه به والرضا بحكمه وقضائه كما سيأتي.

وبالجملة إن جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق هي ثمرة الحب. وأما ما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق.

والمحبّون لا يخرجون عن هذين القسمين:

١ ـ أن يحب الإنسان خالقه لإحسانه إليه.

٢ ـ أن يحب الإنسان خالقه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه.

ولذلك قال الجنيد:

الناس في محبة الله عام وخاص:

ـ العوام: نالوا ذلك الحب بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه، فلم يتمالكوا أن أحبوه. إلا أن محبتهم تقل وتكثر على قدر النعم والإحسان.

ـ الخواص: فقد نالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرّد بالملك. فلما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يقدروا إلا أن يحبوه، إذ استحق عندهم المحبة لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم.

نعم من الناس من يحب هواه وعدوّ الله إبليس، وهو مع ذلك يظن أنه محب لله، مع أنه لا يجد في نفسه هذه العلامات، أو يدّعيها نفاقاً ورئاءً وسمعة، وغرضه عاجل حظ الدنيا. وهؤلاء هم علماء السوء.

وقد قال أبو تراب النخشبي في علامات المحب أبياتاً:

لا تخدعن فللمحب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائلُ
منها تنعمه بِمُرِّ بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعلُ
فالمنع منه عطية مبذولة ... والفقر إكرام وبرٌّ عاجلُ
ومن الدلائل أن يُرى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذِلُ
ومن الدلائل أن يُرى متبسماً ... والقلب فيه من الحبيب بلابلُ
ومن الدلائل أن يُرى متفهماً ... لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يُرى مُتقشفاً ... متحفظاً من كل ما هو قائلُ

وباختصار: المحبة محو الإرادات واحتراق الصفات والحاجات.

معنى الأُنس وعلامته

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة، إلا أنّ هذه الآثار تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته. فإذا غلب عليه التطلّع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الإطلاع على كنه الجلال، انزعج القلب وهاج فسميت هذه الحالة من الانزعاج شوقاً، وهو يحصل بالنسبة إلى أمر غائب.

وإذا غلب عليه الفرح بسبب القرب ومشاهدة الحضور، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر والمكشوف له وغير ملتفت إلى ما لم يدركه، استبشر القلب بما يلاحظه فسمي استبشاره أُنساً.

وإن كان نظره إلى صفات العزّ والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم قلبه وسمي تألمه خوفاً.

فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال. حتى يغفل عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال فيعظم نعيمه ولذته.

ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له: أنت مشتاق. فقال: لا إنما الشوق إلى غائب، فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق؟

وهذا الكلام لإنسان مستغرق وفرح بما ناله وغير ملتفت إلى ما بقي من مزايا الألطاف. ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا

في الانفراد والخلوة، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله تعالى. بل كل ما يعوق عن الخلوة يكون من أثقل الأشياء على القلب كما روي أن موسى﵇ لما كلّمه ربه مكث دهراً لا يسمع كلام أحد من الخلق إلا أخذه الغشيان، لأن الحب يؤدي إلى عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه.

لذا قال الله تعالى لداود﵇: كن بي مستأنساً ومن سواي مستوحشاً.

وقال أحدهم: مررت براهب فقلت له: يا راهب لقد أعجبتك الوحدة. فقال: يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك. الوحدة رأس العبادة، قلت: يا راهب ما أقل ما تجد في الخلوة؟ قال: الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم، قلت: يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله عز وجل؟ قال: إذا صفا الودّ وخلصت المعاملة. قلت: ومتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمعت الهموم فصارت هماً واحداً في الطاعة.

وقال بعض الحكماء: عجباً للخلائق كيف أرادوا لك بدلاً، عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك.

☐ علامة الأنس:

أما علامة الأنس الخاصة فهي:

ضيق الصدر عن معاشرة الخلق والتبرّم بهم والاستغراق بعذوبة الذكر. فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة، وغريب في حضر، وغائب في حضور ومخالط بالبدن متفرد بالقلب المستغرق بعذوبة الذكر.

وقد قال أمير المؤمنين علي﵇ في وصفهم:

«هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا

روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحلّ الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدُّعاة إلى دينه»[1].

فهذا هو معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهده.

وقد قيل:

الأنس بالله لا يحويه بطّال — وليس يدركه بالحول محتالُ
والآنسون رجال كلهم نجب — وكلهم صفوة لله عمالُ

(١) نهج البلاغة: الحكم والمواعظ، رقم ١٤٧.

معنى الانبساط وتفاوت العباد فيه

إن الأُنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغّصه خوف البعد والحجاب فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى. ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين. موسى عليه السلام كان قد خرج ليستسقي لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عز وجل إليه: كيف استجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم. سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري، إرجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له. فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف. فبينا موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله تعالى فسلّم عليه فقال: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طلبتنا منذ حين، اخرج فاستسق لنا، فخرج فقال في كلامه:

ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك اتعصّت عليك غيومك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفد ما عندك أم اشتدَّ غضبك على المذنبين، ألست غفاراً قبل خلق الخطائين، خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم ترينا أنك ممتنع، أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة؟ قال فما برح حتى اخضلّت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله عز وجل العشب

في نصف يوم حتى بلغ الركب قال: فرجع برخ فاستقبله موسى فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفني، فهمّ موسىعليه السلام به فأوحى الله عز وجل إليه: أن برخاً يضحكني كل يوم ثلاث مرّات.

وقيل: إنه احترقت أخصاص[1] بالبصرة فبقي في وسطها خصٌ لم يحترق وأبو موسى الأشعري يومئذ أمير البصرة فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخصّ فأتي بشيخ فقال: يا شيخ ما بال خصّك لم يحترق؟

فقال: إني أقسمت على ربي ألا يحرقه. فقال أبو موسى: إني سمعت النبيﷺ يقول:

«يكون من أمتى قوم شعثة رؤوسهم، دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم»[2].

وقيل: وقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخوّاص فجعل يتخطى النار، فقال له أمير البصرة: انظر لا تحترق بالنار! فقال: إني أقسمت على ربي ألا يحرقني بالنار، قال: فاعزم عليه أن تُطفأ، قال: فعزم عليه فطفئت. وكان أبو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقيّ مدهوش فقال له أبو حفص: ما أصابك؟ فقال: ضلّ حماري ولا أملك غيره، قال: فوقف أبو حفص وقال: وعزّتك لا أخطو خطوة ما لم تردّ عليه حماره.

قال فظهر الحمار في الوقت ومرّ أبو حفص.

فهذا وأمثاله يجري لذوي الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال جنيد: أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم وفي خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة، فلو سمعها العوام لكفروهم. وإلى هذا الأمر أشار القائل:

---

(١) اخصاص: جمع خصّ؛ وهو بيت من قصب أو شجر.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء.

قوم يخالجهم زهوٌ لسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عزّ ما تاهوا

وقال الشبلي:

إن المحبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبّاً غير سكران

□ رضا الله على أهل الأنس والبسط:

ولا تستبعدنّ رضا الله عن عبدٍ بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما. ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت لها وفهمتها. فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار، وإن كانت عند ذوي الاغترار من الأسمار.

وأوّل هذه القصص قصّة آدم عليه السلام وإبليس، أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة، ثم تباينا في الاجتباء والعصمة. أما إبليس فأبلس عن رحمة الله وقيل: إنه من المبعدين.

أما آدم فقيل فيه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[1] ولذلك كان الإنبساط والإدلال محتمل الوقوع من بعض العباد دون البعض. فمن انبساط الأنس ما قاله موسى عليه السلام:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[2].

وقوله عليه السلام في التعلّل والاعتذار لما قيل له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[3].

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.

(٣) سورة طه، الآية: ٢٤.

حيث قال عليه السلام: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ⦗١٤⦘﴾[1].

وقوله عليه السلام: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾[2].

وقوله عليه السلام أيضاً: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾[3].

وهذا إن صدر من غير موسى عليه السلام فهو من سوء الأدب لأن الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل، ولم يحتمل ليونس عليه السلام لما أقيم مقام القبض والهيبة فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، فنودي عليه إلى يوم المحشر:

﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ⦗٤٩⦘﴾[4].

ونهى الله تعالى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدي به فقال له:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ⦗٤٨⦘﴾[5].

☐ أسباب الاختلاف والتفاضل:

وهذه الاختلافات بعضها سببه اختلاف الأحوال والمقامات، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد. وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[6].

وقال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[7].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٣.
(٣) سورة طه، الآية: ٤٥.
(٤) سورة القلم، الآية: ٤٩.
(٥) سورة القلم، الآية: ٤٨.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

ولقد كان النبي عيسى عليه السلام من المفضلين ولذا سلّم على نفسه فقال:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[١].

وهذا انبساط منه لِما شاهد من الله تعالى من اللطف في مقام الأنس. أما يحيى بن زكريا فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء، فلم ينطق حتى سلّم عليه خالقه فقال عز وجل:

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾[٢].

وقد قال بعض العلماء: لقد عددت من أوّل قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾[٣] إلى رأس العشرين آية في إخبار الله تعالى عن إخوة يوسف، فوجدت فيه نيفاً وأربعين خطيئة، بعضها أكبر من بعض، فغفر الله لهم وعفا عنهم.

وفي المقابل لم يحتمل لعزير مسألة واحدة سأل عنها في القدر حتى قيل له لئن عدت لمحيت عن ديوان النبوة.

وكذلك بلعم بن باعوراء الذي كان من أكابر العلماء ولكنه أكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك أيضاً. وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته في الجوارح فعفا الله عنه.

فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام:

يا رأس العابدين ويا موضع محجة الزاهدين، إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرّة، فوعزتي وجلالي لئن أخذته

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٥.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨.

غضبة من غضباتي عليه لأتركنه مثلة لمن معه ونكالاً لمن بعده. فلما دخل آصف على سليمان أخبره بما أوحى الله تعالى إليه. فخرج حتى علا كثيباً من الرمل، ثم رفع رأسه ومدّ يديه إلى السماء، وقال: إلهي وسيدي أنت أنت وأنا أنا، فكيف أتوب إن لم تتب عليّ؟ وكيف أستعصم إن لم تعصمني؟ أغثني وإلا لأعودنّ ولأعودنّ ولأعودّن. فأوحى الله تعالى إليه أن قد صدقت يا آصف، أنا أنا وأنت أنت، استقبل التوبة إليّ فقد تبت عليك، وأنا التوّاب الرحيم. وهذا كلام عبد هارب منه إليه، وناظرٌ به إليه.

وفي الخبر أن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن أشفى على الهلكة: يا عبدي كم من ذنب واجهتني به فغفرته لك وقد أهلكت بدونه أمّة من الأمم.

فهذه سنته في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على من سبقت به مشيّته الأزلية. وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله تعالى في عباده الذين خلوا من قبل. فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور، وتعرُّف من الله تعالى إلى خلقه.

فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[١].

وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول:

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[٢] وتارة يتعرف إليهم بأفعاله المخوّفة

(١) سورة الإخلاص.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

والمرجوّة فيتلو عليهم سننه في أنبيائه وأعدائه فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾[2].

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي:

١ ـ الإرشاد إلى معرفة ذات الله تعالى وتقديسه.

٢ ـ معرفة صفاته وأسمائه.

٣ ـ معرفة أفعاله وسنته مع عباده.

ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهي التقديس وازنها النبي ﷺ بثلث القرآن فقال:

«من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن»[3].

فهذه أسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرآن، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. فهو كتاب لا يعرفه إلا من طال فكره في آحاد كلماته وصفا له فهمه حتى تشهد كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك مقتدر وأنه خارج عن حدّ استطاعة البشر. وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار، فكن حريصاً على استنباطها لينكشف لك فيها من العجائب ما تستحقر معها العلوم المزخرفة الأخرى. هذا ما أردنا ذكره في معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه.

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) سورة الفيل، الآية: ١.

(٣) البخاري: ج٦، ص٢٣٢.

معنى الرضا بقضاء الله وما ورد في فضيلته

إن الرضا ثمرة من ثمرات المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإبهام غير منكشف إلا لمن علّمه الله التأويل وفقّهه في الدين.

١ ـ فضيلة الرضا في الآيات القرآنية:

أما في الآيات فقد قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[١] وقال عز من قائل: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾[٢] ومنتهى الإحسان رضا الله تعالى عن عبده وهو ثواب رضا العبد عنه.

وقال تعالى أيضاً:

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[٣].

فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن، كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1].

فكما أن مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة، فرضوان ربّ الجنة أعلى من الجنة، بل هو [الرضا] غاية مطلب سكان الجنان.

وفي الحديث: «إن الله عز وجل يتجلى للمؤمنين فيقول: سلوني. فيقولون: رضاك يا ربنا»[2] فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل، فلا رتبة فوق النظر إليه، وإنما سألوه الرِّضا لأنه سبب دوام النظر.

فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر إليه، فلما أمروا بالسؤال لما يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب. ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[3].

٢ ـ فضيلة الرضا في الروايات:

أما فضيلة الرضا فقد روي أن النبيﷺ:

«سأل طائفة من أصحابه ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ قالوا: نصبر عند البلاء ونشكر عند الرخاء ونرى بمواقع القضاء. فقالﷺ: مؤمنون ورب الكعبة»[4].

وفي خبر آخر أنه قال: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء».

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٢) أخرجه البزار والطبراني في الأوسط.
(٣) سورة ق، الآية: ٣٥.
(٤) كتاب الصبر والشكر: ج٧، ص١٠٧.

وفي الخبر: «طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان رزقه كفافاً، ورضي به»[١].

وقال النبي ﷺ: «من رضي من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضي الله عنه بالقليل من العمل»[٢].

وقال ﷺ أيضاً:

«إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه».

وقال أيضاً:

«إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاؤوا. فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً. فتقول الملائكة: هل جزتم على الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً. فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً. فتقول الملائكة: من أمّة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ. فتقول الملائكة: ناشدناكم الله؛ حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلّغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته. فتقول الملائكة: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه؛ ونرضى باليسير مما قسّم لنا، فتقول الملائكة: فحق لكم هذا»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) الكافي: ج٢، ص١٣٧، باب القناعة.

(٣) رواه ابن حبان وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف.

وقال النبي ﷺ:

«أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقدكم وإلا فلا».

وفي أخبار موسى عليه السلام:

«إن بني إسرائيل لما قالوا له عليه السلام سلّ لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنّا، فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا. فقال: يا موسى قل لهم: يرضون عني حتى أرضى عنهم».

ويشهد لهذا ما روي عن نبينا ﷺ أنه قال:

«من أحب أن يعلم ما له عند الله عز وجل، فلينظر ما لله تعالى عنده فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه»[(1)].

وفي أخبار داود عليه السلام، قال الله تعالى:

«ما لأوليائي والهمّ بالدنيا، إن الهمّ يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون».

وسئل عيسى عليه السلام ما أفضل الأعمال؟ فقال عليه السلام:

«الرضا عن الله والحب له».

وروي أن موسى عليه السلام قال:

«يا رب دلّني على أمر فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى

---

(١) أخرجه الحاكم.

الله تعالى إليه: رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره. فقال: يا ربّ دلني عليه؟ فقال: إن رضاي في رضاك بقضائي».

وفي مناجاة موسى عليه السلام قال:

«أي ربّ أي خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمني. قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط، قال: من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له كره قضائي».

وقد روي ما هو أشد منه وذلك أن الله تعالى قال:

«أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي ولم يشكر نعمائي فليتخذ رباً سواي»[1].

ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ أنه قال الله تعالى:

«قدّرت المقادير ودبّرت التدبير وأحكمت الصنع، فمن رضي فله الرضا عني حتى يلقاني. ومن سخط فله السخط مني حتى يلقاني».

وفي الخبر المشهور:

يقول الله عز وجل:

«خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشرّ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير.

على يديه، وويل ثم ويل لمن قال: لم وكيف»[1].

وفي الأخبار السالفة: أن نبياً من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب له. ثم أوحى الله تعالى إليه: «كم تشكوني ولست أهلاً للذّمِّ والشكوى وأنت أحق بالذم والشكوى، وهكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا. أتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدِّل ما قدَّرته عليك فيكون ما تحبُّ فوق ما أحبّ ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالي لئن اختلج هذا في صدرك مرّة أخرى لأمحونّك من ديوان النبوّة».

وروي: أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه، فقال له بعض أولاده الكبار: يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا، فقال آدم عليه السلام: «يا بني إني رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا. إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك حركة أخرى فيصيبني ما لا أعلم».

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام:

«تريد وأريد، وإنما يكون ما أريد، فإن سلّمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد».

---

(١) الكافي: ج١، ص١٥٤، باب الخير والشر.

وقال الرسول الأكرم ﷺ:

«إن الله عز وجل جعل بحكمته وجلاله الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط»(١).

---

(١) أخرجه الطبراني.

حقيقة الرضا بقضاء الله

إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين:

■ الوجه الأول:

أن يبطل الإحساس بالألم عنده فتجري عليه الآلام ولكن دون أن يشعر بها. كالرجل المحارب؛ فإنه في حال غضبه أو حال خوفه قد يصاب بالجراح ولكن لا يحس بها، حتى إذا رأى الدم استدل به على أنه مجروح. بل الذي يعدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألمها لشغل قلبه.

وكذا العاشق المستغرق الهمّ بمشاهدة معشوقه، فقد يصيبه ما كان من المفترض أن يتألم منه أو يغتم بسببه لولا عشقه. ولكنه لا يشعر بالغم والألم لفرط استيلاء الحب على قلبه. فشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل. والحب يتصور كما يتصوّر تضاعف الألم في القوة. وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر، كذلك يقوى حب الصور الجميلة الباطنية المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها.

ومن ينكشف له شيء من هذا الحب فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ولا يحسّ بما يجري عليه. لذا قيل: أن ضرب الحبيب لا يوجع.

■ الوجه الثاني:

هو أن يحس بالألم ويدركه ولكنه يكون راضياً به، بل وراغباً فيه مريداً له بعقله وإن كان كارهاً له بطبعه. كالمسافر الذي يطلب الربح وهو يدرك مشقة السفر ولكن حبّه لثمرة سفره جعله راضياً بهذه المشقة.

فالمحب مهما أصابته بلية من الله عز وجل وكان على يقين بأن الثواب الذي ادّخر له هو فوق ما فاته رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله تعالى عليه. هذا إذا كان المحب ملاحظاً للثواب والإحسان الذي سيجازى به، وقد يغلب الحب على قلب المحب فيكون حظه في مراد حبيبه ورضاه فقط لا لأجل ثواب أو إحسان. فحبيبه ورضاه عنه هو مطلوبه لا غير.

روي أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد، مضروب الجانبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه. فقال له عيسى عليه السلام:

يا هذا أي شيء من البلاء تراه مصروفاً عنك، فقال: يا روح الله، أنا خيرٌ ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال له: صدقت هات يدك فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبّد معه.

فالرضا إذاً مقام عظيم من مقامات أهل الدين وله شكلان:

١ ـ الرضا بالألم لما يتوقع منه الثواب الموعود.

٢ ـ الرضا بالألم لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضى له. حتى يصل إلى مقام يغلب عليه الحب بالكامل، بحيث يمتزج مراد المحبّ في مراد المحبوب فيكون سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه أحب وألذ الأشياء عنده.

كيفية الجمع بين الرضا ومقت المعاصي

إن الدعاء غير مناقض للرضا ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا.

وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وحسم أسبابها والسعي في إزالتها، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه.

وقد اختلط الأمر على قوم من البطالين المغترين فزعموا أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره؛ لذا يجب الرضا به. وهذا في الحقيقة جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع.

١ ـ أما الدعاء: فقد تعبدنا به الله تعالى، وقد كثرت أدعية النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام رغم أنهم وصلوا إلى أعلى مقامات الرضا. وقد أثنى الله عز وجل على عبده زكريا بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1].

٢ ـ أما إنكار المعاصي: وكراهاتها وعدم الرضا بها، فقد تعبد الله عز وجل به عباده، وذمهم على الرضا بها. فقال:

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾[2]:

وقال عز وجل: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[3].

وفي الخبر المشهور: «من شهد منكراً ورضي به فكأنه قد فعله».

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٧.

وفي الخبر: «لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكه في قتله»[1].

وقد أمر الله عز وجل بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقي الشرور فقال تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[2].

وقال النبيﷺ: «لا حسد إلا في اثنين رجل أتاه الله حكمة فهو يبثها في الناس ويعلمها، ورجل أتاه الله تعالى مالاً فسلطه على هلكته في الحق».

٣ ـ أما الكفار والفجار: والإنكار عليهم ومقتهم، فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى كقوله تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[4].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾[5].

وفي الخبر:

«إن الله عز وجل أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق، وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن».

---

(١) العيون والعلل: الصدوق.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢٩.

وقال النبي ﷺ:

«من أحب قوماً والاهم وحشر معهم يوم القيامة»[1].

وقال ﷺ:

«أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»[2].

□ كيفية الجمع بين الرضا وكراهة الشيء:

لقد وردت الآيات والروايات التي تحث على الرضا بقضاء الله تعالى هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن كانت المعاصي هي خارجة عن قضاء الله فهو محال لأنه قادح في التوحيد، وإن كانت هذه المعاصي داخلة في قضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى. إذاً فكيف السبيل إلى الجمع بين الرضا والكراهة في آنٍ واحد؟ في الحقيقة إن هذا الأمر مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن معرفة أسرار العلوم. وقد التبس الأمر على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاماً من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض.

والصحيح أن الرضا والكراهة متضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة وعلى وجه واحد.

وليس من التضاد أن يكون الشيء الواحد مكروهاً من وجه ومرضياً عنه من وجه آخر. إذ قد يموت عدوّك الذي هو عدوّ عدوّك أيضاً وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدوّ عدوّك، وترضاه من حيث أنه مات عدوّك.

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه أحمد.

وكذلك للمعصية وجهان:

١ ـ وجه إلى الله تعالى:

من حيث إنها فعله واختياره وإرادته، فترضى به من هذا الوجه تسليماً لملك الملوك ورضاً بفعله.

٢ ـ وجه إلى العبد:

من حيث إن هذا الفعل من كسبه ووصفه. وهو فعل ممقوت عند الله ومبغوض لديه، بحيث إنه سلط على مرتكبه أسباب البعد والمقت، فهو من هذه الجهة منكر ومذموم.

ولا ينكشف ذلك لك إلا بمثال:

فلنفرض محبوباً من الخلق قال لمحبيه إني أريد أن أميّز بين من يحبني ويبغضني، وأريد أن أنصب لذلك معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً وهو على الشكل التالي: فسأقصد فلاناً من الناس بما يؤذيه، وأضربه ضرباً يضطره في ذلك إلى الشتم، فإذا شتمني أبغضته واتخذته عدواً لي.

فكل من أحب هذا الشخص الذي عاداني وشتمني فأعلم أنه أيضاً عدوي، وكل من أبغضه فأعلم أنه صديقي وحبيبي.

ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب للبغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة.

فحقٌ على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة؛ فأنا محب له وراض به، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك. وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، ولكنه كان مرادك منه، فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي

دبرته فأنا راض به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصاناً في تدبيرك وتعويقاً في مرادك وأنا كاره لفوت مرادك. ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك فهو على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم لذا فأنا كاره له من حيث نسبته إليه، ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك.

أما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك. وأما بغضه لك فإنني أرضاه من حيث إنك أردت منه أن يبغضك، إذ أبعدته عن نفسك وسلّطت عليه دواعي البغض ولكن من جهة أخرى أبغضه لأنه وصف ذلك البغيض وكسبه وفعله وأمقته لذلك، فهو ممقوت عندي لمقته إياك.

وتسليط الله دواعي الشهوة والمعصية على الإنسان حتى يجرّه ذلك إلى حب المعصية ثم يجرّه هذا الحب إلى فعل المعصية يضاهي المثال الذي ذكرنا من ضرب المحبوب لشخص ما حتى يجرّه الضرب إلى الغضب ومن ثم إلى الشتم. فمقت الله عز وجل لمن عصاه. وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه ومقته عليه وإن كان شتمه إنما حصل بتدبيره واختياره.

وتسليط دواعي المعصية من الله تعالى على عبده يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته. فواجب على كل عبد محب لله عز وجل أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من أبعده عن حضرته.

فالبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتاً بغيضاً إلى جميع المحبين موافقة للمحبوب، من خلال إظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده. وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار في البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم

والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله عز وجل من حيث إنه قضاء الله تعالى.

وهذا كله يستمد من سرّ القدر الذي لا رخصة في إفشائه؛ وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة. ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي به.

فمن قال إن الشر ليس من الله تعالى فهو جاهل وكذا من قال: إنهما جميعاً منه، من غير فرق في الرضا والكراهة، فهو أيضاً مقصّر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه. فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال النبيﷺ: «القدر سر الله فلا تفشوه»[١].

وذلك يتعلق بعلم المكاشفة وغرضنا الآن بيان إمكان الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها هي أيضاً من قضاء الله عز وجل، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السرّ فيه.

وبهذا يعرف أيضاً أن الدعاء للمغفرة والعصمة من المعاصي ولسائر الأسباب المعينة على الدِّين غير مناقض للرضا بقضاء الله عز وجل، فإن الله تعالى تعبّد العباد بالدعاء ليؤدي الدعاء منهم إلى صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف. كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش، وشرب الماء طلب لإزالة العطش، ومباشرة سبب رتّبه مسبب الأسباب. فكذلك الدعاء فهو سبب رتّبه الله تعالى، وأمر به. إن التمسك بالأسباب جرياً على سنّة الله تعالى لا يناقض التوكل، والتوكل لا يناقض الرضا، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ومتصل به.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا تناقض فيه.

وقد قيل: إن من حسن الرضا بقضاء الله أن لا يقول العبد في الصيف: هذا يوم حار إذا كان في معرض الشكاية، فالشكوى مناقضة للرضا على كل حال.

كما أن ذمّ الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله، لأن مذمّة الصنعة مذمّة الصانع والكل من صنع الله تعالى.

وقول القائل: الفقر بلاء ومحنة، والعيال هم وتعبٌ والاحتراف كدّ ومشقة، كل ذلك قادح في الرضا. بل ينبغي أن يسلّم التدبير لمدبّره والمملكة لمالكها ويقول كما قال بعضهم:

لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً فإني لا أدري أيهما خيرٌ لي.

هجرة بلاد المعاصي لا يقدح في الرضا

إن الضعيف قد يظن أن نهي النبي ﷺ عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون يدل أيضاً على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وهذا محال.

بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون لأنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى المطعونون مهملين بلا متعهّد لهم، فيهلكون هزلاً، ولذلك شبهه النبي ﷺ في بعض الأخبار بالفرار من الزحف. ولو كان ذلك من القضاء لما أذن لمن قارب البلد من الانصراف عنه. فإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فراراً من قضاء الله، بل من القضاء الفرار منها ومن كل ما لا بد من الفرار منه. كما أن ذم المواضع التي تدعوا إلى المعاصي والأسباب التي تدعوا إليها لأجل التنفير من المعصية ليس مذموماً أيضاً.

قال أحدهم: طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من بغداد، قيل: وكيف؟ قال: هو بلد تُزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله. ولما قدم خرسان قيل له: كيف رأيت بغداد؟ قال: ما رأيت به إلا شرطياً غضبان أو تاجراً لهفان أو قارياً حيران.

ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه

حتى يستضرّ ذلك الشخص به، بل قصد بذلك تحذير الناس. فهذا يدل على أن من سكن ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقلُّ فيها الخير، فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر، قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾(١).

فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله مطمئن النفس إليها. بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلاً على الدوام ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾(٢).

وذلك لأن الظلم إذا عمّ نزل البلاء، ودمَّر على الجميع وشمل المطيعين والعاصين. قال الله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٣).

ونختم الكتاب بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«سألت النبي صلى الله عليه وآله عن سنته فقال: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أثاثي، والشوق مركبي، والصبر ردائي والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوّتي والصدق شفيعي، والطاعة جنتي، والجهاد خلقي، وقرّة عيني في الصلاة»(٤).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٤) قال العراقي: ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب.

القسم الثالث

النية ـــ الإخلاص ـــ الصدق

مقدمة

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

لقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، والناس كلهم هلكى إلا العالمين، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملين، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم. فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء.

والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان مشوباً بإرادة غير الله: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣﴾[2].

فليت شعري كيف يصحح النيّة من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟

أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

أولاً لتحصل المعرفة. ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة والخلاص.

ونحن في هذا الكتاب سوف نذكر معاني النية والصدق والإخلاص وحقائقها في ثلاثة أبواب.

فضيلة النية في الآيات والروايات

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(١) حيث إن المراد بالإرادة هنا النية.

وقال النبي ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٢).

وقال ﷺ:

«إن الله عز وجل لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٣).

وإنما النظر إلى القلوب لأنها موضع النية.

وقال ﷺ:

«إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

(٢) صحيح البخاري: ج١، ص٣٩٧.

(٣) أخرجه مسلم.

صحف مختتمة فتلقى بين يدي الله عز وجل فيقول: ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهي. ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا، فيقولون: يا ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك. فيقول: إنه نواه، إنه نواه»[١].

وقال ﷺ:

«الناس أربعة: رجل آتاه الله تعالى علما ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء.

ورجل آتاه الله تعالى مالاً ولم يؤته علماً وهو يتخبط بجهله في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الوزر سواء»[٢].

ولما خرج النبي ﷺ في غزوة تبوك قال:

«إن في المدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شاركونا في ذلك وهم في المدينة. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ فقال ﷺ: حبسهم العذر فشاركونا بحسن النيّة»[٣].

ومما روي:

«إن رجلاً قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار،

---

(١) أخرجه الدارقطني من حديث أنس.

(٢) أخرجه ابن ماجة: باب النية، رقم ٤٢٢٨.

(٣) أخرجه البخاري: ج٦ ص٣١.

لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره، فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته. وهاجر آخر ليتزوج امرأة فكان يسمى مهاجر أمّ قيس»[1].

وعن النبيﷺ أنه قال:

«من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى»[2].

وروي في الإسرائيليات:

«إن رجلاً مرَّ بكثبان رمل في جماعة فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس. فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم أن قل له: إن الله قبل صدقتك وشكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدّقت به».

وقد ورد في أخبار كثيرة أن: «من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة»[3]. وقال النبيﷺ:

«إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم؛ فلان يقاتل للدنيا، فلان يقاتل للحميّة، فلان يقاتل للعصبية. ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[4].

---

(١) رواه أبو إسحاق مرسلاً في السنن وأخرجه الطبراني في المعنى.

(٢) النسائي في السنن: ج٦، ص٢٤.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٢٨.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد.

وعن النبي ﷺ قال:

«يبعث كل عبد على ما مات عليه»[1].

وعن الرسول ﷺ أيضاً أنه قال:

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل: يا رسول الله؛ هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه»[2].

وفي الحديث:

«من تزوّج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان، ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق»[3].

وقال النبي ﷺ:

«من تطيّب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر، ومن تطيّب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة»[4].

وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «لا عمل إلا بنيّة»[5].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: نيّة المؤمن خيرٌ من عمله ونيّة

---

(١) صحيح مسلم: ج٨، ص١٦٥.
(٢) صحيح البخاري: ج٩، ص٦٤.
(٣) أخرجه أحمد: ج٤، ص٣٣٢.
(٤) رواه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة.
(٥) الكافي: ج٢، ص٨٤، رقم ١.

الكافر شرّ من عمله. وكل عامل يعمل على نيّته»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً يقول:

«إن العبد المؤمن الفقير ليقول: يا ربّ ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخير، فإذا علم الله تعالى ذلك منه بصدق نيّة كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله إن الله واسع كريم»[2].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً: قال:

«إنه سئل عن حدّ العبادة التي إذا فعلها فاعلها كان مؤدياً؟ فقال عليه السلام: حسن النية بالطاعة»[3].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إنما خلّد أهل النار في النار لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو خلّدوا فيها أن يعصوا الله تعالى أبداً، وإنما خلّد أهل الجنّة في الجنّة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً. فبالنيّات خلّد هؤلاء وهؤلاء. ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾؛ قال عليه السلام: أي على نيّته»[4].

(١) الكافي: ج٢، ص٨٤، رقم ٢.
(٢) الكافي: ج٢، ص٨٥، رقم ٣.
(٣) الكافي ج٢، ص٨٥، رقم ٤.
(٤) الكافي: ج٢، ص٨٥، رقم ٥.

حقيقة النية

إن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد. وهو حالة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل. فالعلم يتقدم لأنه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه. فكل عمل أو كل حركة وسكون اختياري لا يتم إلا بثلاثة أمور:

١ ـ علم. ٢ ـ إرادة. ٣ ـ قدرة.

لأن الإنسان لا يريد ما لم يعلمه فلا بد أن يعلم أولاً، كما أنه لا يعمل ما لم يرده، فلا بد من إرادة حتى يتحقق العمل. ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما في الحال أو المآل. فقد خلق الإنسان بحيث توافقه بعض الأمور وتلائم غرضه وتخالفه بعض الأمور، فاحتاج إلى جلب الملائم والموافق إلى نفسه ودفع المضرّ والمنافي عنه. فإذن لا بد من معرفة وإدراك الشيء المضرّ والنافع حتى يطلبه أو يهرب منه. فإن من لا يدرك الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها.

فالله تعالى خلق الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً وهي الحواس الظاهرة والباطنة، ولكن مجرد رؤية الغذاء ومعرفة أنه موافق لا يكفي لدفع الإنسان إلى تناول الطعام ما لم يكن فيه ميل إلى الغذاء، وشهوة له باعثة عليه. إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق له ولكن لا يمكنه

تناوله لعدم الرغبة والميل، ولفقد الداعية المحركة إليه، لذا خلق الله تعالى للإنسان الميل والرغبة والإرادة، ثم إن ذلك لم يكفه فكم من راغب في طعام مريد تناوله ولكنه عاجز عنه وفاقد للأعضاء المعينة له على ذلك، لذا خلق الله تعالى للإنسان القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتمّ بها تناول الطعام.

فالعضو لا يتحرك إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية الباعثة تنتظر العلم والمعرفة بكون الشيء موافقاً له أم لا.

فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ولابد وأن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه؛ انبعثت الإرادة وتحقق الميل، وإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء.

فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم العلم والمعرفة. فالنية إذاً عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال أو في المآل.

فالمحرك الأول إذاً هو القصد والنية.

أقسام النية

ذكرنا أن المحرك الأول هو الغرض الباعث، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل. إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بنية واحدة وقد يكون بنيتين اجتمعتا في فعل واحد. وإذا كانت بنيّتين فقد تكون كل واحدة قادرة بشكل منفرد على إنهاض القدرة.

وقد تكون كل واحدة منهما قاصرة عن إنهاض القدرة إلا بالاجتماع. وقد تكون إحداهما كافية لكن الأخرى انتهضت عاضدة لها ومعاونة. فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام للنية. وسنذكر لكل واحد مثالاً واسماً.

الأول: انتهاض القدرة بنية واحدة.

كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه. فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع. فهو بعد أن رأى السبع وعرفه ضاراً انبعث في نفسه ميل للهرب، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقوم بطلب الفرار من السبع ولا نية له إلا ذلك. وهذه النيّة تسمى خالصة، ويسمّى العمل بموجبها إخلاصاً، لأنه خلص من مشاركة غيره وممازجته.

الثاني: انتهاض القدرة بنيّتين كل واحدة منهما قادرة بشكل مستقل على الإنهاض. ومثاله أن يكون لشخص ما قريب فقير يعرض له حاجته

فيقضيها له لسببين: لفقره ولقربه منه. فهو لولا فقره لقضاها له بسبب القرابة ولولا القرابة لقضاها له بسبب الفقر.

ومثاله أيضاً من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه عرفة فصام وهو يعلم أنه لولا عرفة لترك الطعام حمية ولولا الحمية لتركه لأجل صيام يوم عرفة.

إذاً فقد اجتمعت النيّتين مع بعضهما البعض، فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول. ولنُسَمِ هذا موافقة النية أو الباعث.

الثالث: انتهاض القدرة بكلا النيّتين معاً.

ومثاله أن يقصد إنساناً ما قريبه الغني ليطلب درهماً فلا يعطيه ويقصده الأجنبي الفقير ليطلب منه درهماً فلا يعطيه، ثم يقصده الفقير القريب فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهما القرابة والفقر. وكذلك الرجل يتصدّق بين يديّ الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، وهو بحيث إنه لو تحقق غرض واحد لكان لا يبعثه. ولنسمّ هذا الجنس مشاركة.

الرابع: انتهاض القدرة بنية واحدة وقيام النية الأُخرى عضداً لها وعوناً.

ومثاله أن يكون للإنسان وردٌ في الصلوات وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم له وعلمه أنه لو كان منفرداً لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة فقد صار الرياء هو المحرك له، فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً، ولنسم هذا الجنس المعاونة.

فالعمل إذاً تابع للباعث عليه والنية فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل: إنما الأعمال بالنيات.

السرّ في كون النية خير من العمل

إن كل طاعة تنتظم بنية وعمل، فصارت النية من جملة الخيرات والعمل كذلك، إلا أن النية من جملة الطاعات خيرٌ من العمل. أي أن لكل واحد منهما أثر في المقصود ولكن أثر النية أكثر من أثر العمل. وهذا معناه أن نية الإنسان المؤمن من جملة طاعاته خيرٌ من عمله الذي هو أيضاً من جملة طاعاته.

وهذا هو معنى قول النبيﷺ: «نية المؤمن خيرٌ من عمله».

ويمكن أن يكون لها معنى آخر وهو أن المؤمن ينوي أن يوقع عباداته على أحسن الوجوه، ثم لما اشتغل بها لم يتيسّر له ذلك، فكسل عنها ولم يأت بها على ما ينبغي، فالذي ينويه خير من الذي يعمله. وإلى هذا المعنى أشار الإمام الباقرعليه السلام حيث قال:

«نية المؤمن خير من عمله، وذلك لأنه ينوي من الخير ما لا يدركه، ونية الكافر شرّ من عمله، وذلك لأن الكافر ينوي الشرّ ويأمل من الشرّ ما لا يدركه»(١).

وسئل الإمام الصادقعليه السلام عن معنى الحديث فقال:

«لأن العمل رياء المخلوقين والنية خالصة لربّ

---

(١) كتاب علل الشرائع: الصدوق.

العالمين، فيعطي عز وجل على النية ما لا يعطي على العمل»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فيغلبه عينه فينام فيثبت الله صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة»[2].

وأما سبب كونها خيراً من العمل وراجحة عليه فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه. فالطاعات غذاء القلوب والمقصود والهدف هو شفاء هذه القلوب وبقاؤها سالمة في الآخرة، وتنعمها بلقاء الله عز وجل. فالهدف هو لذّة السعادة بلقاء الله تعالى فقط، ولن يتنعم بلقاء الله تعالى إلا من مات محبًّا لله، ولن يحبه إلا من عرفه، ولن يأنس به إلا من طال ذكره له. فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة.

ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عن شهواتها حتى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له نافراً عن الشرّ مبغضاً له.

وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بهما. وإذا حصل أصل الميل المستمدّ من المعرفة أصبح العمل قوياً بمقتضى الميل والمواظبة عليه. فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بواسطة العمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترسخ الصفة وتقوى.

فالذي يميل إلى طلب العلم أو طلب الرئاسة يكون ميله في البداية

---

(١) كتاب علل الشرائع: الصدوق.

(٢) المصدر السابق نفسه.

ضعيفاً، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالرئاسة والأعمال المطلوبة لها، تأكد ميله ورسخ وعسر انتزاعه، وإن خالف مقتضى ميله ضعف هذا الميل وانكسر، وربما زال وانمحق.

بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً، فلو اتّبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمجاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره، فلا يقدر على النزوع عنه.

وهكذا الخيرات والطاعات يراد بها الآخرة والشرور كلها يراد بها الدنيا لا الآخرة. وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيا هو الذي يفرّغها للذكر والتفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر. فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغيّر اللون.

إلا أن القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرُّعاء والأتباع، فالجوارح خادمة للقلب.

إن القلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبيﷺ:

«إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد».

وقالﷺ أيضاً: «اللهم أصلح الراعي والرعية» وأراد بالراعي القلب.

وقال الله تعالى ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ

مِنكُمْ﴾[1]، والتقوى صفة القلب، فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون من جملتها أفضل، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له. وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوِّد الإنسان القلب على إرادة الخير، ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا وينكبّ على الذكر والتفكر. فالهدف من الطاعات هو تغيير القلوب وتبدل صفاتها دون الجوارح. فلا تظنَّن أن في وضع الجبهة على الأرض هي الغرض، بل المقصود منها تأكيد صفة التواضع في القلب. فإن من يجد في نفسه تواضعاً إذا استعان بأعضائه وصوّرها بصورة التواضع تأكد تواضعه واشتد أكثر.

ومن وجد في قلبه رقّة على يتيم فإذا مسح على رأسه وقبّله تأكدت الرقة في قلبه. ولهذا كان العمل من دون نية غير مفيد. فمن مسح على رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانٌ أنه يمسح ثوباً، لم يسر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة.

وكذلك من سجد غافلاً وهو مشغول الهم بأغراض الدنيا لم يسر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه ليتأكد به التواضع، وكان وجوده كعدمه، وما كان وجوده متساوياً لعدمه يسمى باطلاً، فيقال: إن العبادة بغير نية باطلة. أما لو كان فعله بقصد الرياء أو التعظيم لشخص آخر لم يكن وجوده كعدمه، بل زاده شراً، لأنه أضف إلى أنه لم يؤكد الصفة المطلوبة بل عمل على تأكيد الصفة المقابلة والمطلوب قمعها وهي صفة الرياء، التي تنشأ من الميل إلى الدنيا والركون إليها.

فهذا هو إذاً وجه كون النيّة خيراً من العمل، وبهذا يعرف معنى قوله ﷺ:

«من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة».

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٧.

الأعمال وارتباطها بالنية

إن الأعمال ثلاثة أقسام:

١ ـ معاصي.

٢ ـ طاعات.

٣ ـ مباحات.

القسم الأول: المعاصي:

وهي التي لا تتغيّر موضوعاتها بالنيّة، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، فيظن أن المعصية تنقلب طاعة من خلال النية. كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجداً بمال حرام وقصده الخير.

فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في إخراجها عن كونها حراماً وظلماً وعدواناً ومعصية. بل إن قصد الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع هو شرّ آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات إنما عرف كونها خيرات من خلال الشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً. وسبب رواج مثل هذه الأباطيل هو اتباع الأهواء والشهوات.

فالقلب إذاً كان مائلاً إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس؛ توسل الشيطان بهذا القلب للتلبيس على الجاهل. ولذلك قيل: ما عصي بمعصية أعظم من الجهل. وقيل إن ما هو أشد من الجهل هو الجهل بالجهل. لأن الجهل بالجهل يسد باب التعلم بالكامل، فمن يظن نفسه أنه عالم كيف يتعلم!؟

فمن لا يعرف العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما انكبّ الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وهي مادة الجهل ومنبع فساد العالم. لذا من قصد الخير بمعصية عن جهل لم يكن معذوراً، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد مهلة التعلم، وقد قال الله تعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

وقال النبي ﷺ:

«لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحلُّ للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه»(٢).

ويقرب من تقرّب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، تقرّب علماء السوء بتعليم السفهاء والأشرار المعروفين بالفجور والقاصرين همتهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين والمساكين واليتامى. فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله، ونهض كل واحد في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا، ويتّبع الهوى، ويبتعد عن التقوى.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٢) أخرجه الطبراني.

فيتجرأ الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله. ثم ينتشر ذلك العلم بين أمثاله فيتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك. . ووبال جميع هذه السلسلة يرجع إلى المعلم الذي علم هذا العلم لطلاب مع علمه بفساد نيتهم. فيموت هذا العالم وتبقى آثار شرّه منتشرة في العالم ألف سنة أو ألفي سنة مثلاً، فطوبى إذاً لمن مات وماتت ذنوبه معه.

ثم العجب من جهله حيث يقول: «إنما الأعمال بالنيات» فقد قصدت أن أنشر علم الدين، فإذا استعمله من هو فاسد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت إلا أن يستعين به على الخير.

ولا يخفى أن حبّ الرئاسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم هو الذي يحسّن له ما يفعله وما يقوم به، من خلال تسويلات الشيطان وتلبيساته.

وليت شعري ما جوابه عمّن وهب سيفاً لقاطع طريق وأعدّ له خيلاً وأسباباً أخرى يستعين بها على مقصوده وهو يقول: إنما أردت البذل والسخاء والتخلّق بأخلاق الله عز وجل، وقصدت أن يغزو بهذا السيف والخيل في سبيل الله، فإن إعداد الخيل للرباط والقوة في مواجهة الغزاة من أقرب القربات، مع أن الفقهاء أجمعوا على حرمة بذل المال على قطاع الطريق لأنه من المعاصي. فمن عادته أن يستعين بالسلاح على الشرّ ينبغي أن يسلب منه سلاحه لا أن يمدّ به، والعلم سلاح قد يستعمل لقتال الشيطان وأعداء الله، وقد يعاون به أعداء الله تعالى وهو الهوى. فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه، ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله، فكيف يجوز إمداده بالعلم الذي يتمكن به من الوصول إلى شهواته؟! فهذا وأمثاله مما يتلبس على الأغبياء واتباع الشيطان، وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر منها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي علوم تتعلق بالخلق

ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران.

إذن فقوله ﷺ: «الأعمال بالنيات»، يختص بالطاعات والمباحات دون المعاصي.

القسم الثاني: الطاعات:

وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله لا غير فإن نوى الرياء صارت معصية. أما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، وإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نيّة ثواب. إذ كل واحدة منها حسنة فتضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد في الخبر، ومثالها القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المؤمنين:

أوّلها: أن يعتقد أنه بيت الله وأنّ داخله زائر الله تعالى، فيقصد به زيارة مولاه، رجاء لما وعده النبي ﷺ حيث قال:

«من دخل المسجد فقد زار الله عز وجل وحق على المزور إكرام زائره»[1].

ثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد فراغه من الصلاة فيكون مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿وَرَابِطُواْ﴾[2].

ثالثها: الترهب بكف السمع والبصر وسائر الأعضاء عن الحركات، فإن الإعتكاف كف، وهو في معنى الصوم وهو نوع من الترهب. ولذلك قال النبي ﷺ:

«رهبانية أمتي القعود في المسجد».

---

(١) أخرجه ابن حبان.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

رابعها: عكوف الهم إلى الله تعالى ولزوم السرّ للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه باعتزاله إلى المسجد.

خامسها: التجرّد لذكر الله عز وجل أو الاستماع لذكره أو للتذكر به كما روي:

«من غدا إلى المسجد ليذكر الله عز وجل أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله».

سادسها: أن يقصد إفادة علم الله عز وجل بأمر بمعروف أو نهي عن منكر، إذ لا يخلو المسجد عمن يسيء صلاته أو يتعاطى ما لا يحلّ له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يتعلم منه فتتضاعف خيراته.

سابعها: أن يستفيد أخاً في الله فإنها غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، فالمسجد مليء بأهل الدين المحبين لله تعالى.

ثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله عز وجل وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة. وقد قال الحسن بن علي عليه السلام:

«من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله أو رحمة منزلة أو علماً مستطرفاً أو كلمة تدله على هدى أو تصرفه عن ردى أو يترك الذنوب خشية أو حياءً»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان: أخاً

---

(١) رواه الحميري والبرقي أيضاً في المحاسن.

مستفاداً في الله أو علماً مستطرفاً أو آية محكمة أو يسمع كلمة تدله على هدى أو كلمة تردُّه عن ردى أو رحمة منتظرة أو يترك ذنباً خشية أو حياءً».

فهذا هو طريق تكثير النيات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة. وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمّره له، وتفكره فيه. فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات.

القسم الثالث: المباحات:

كما في الطاعات؛ المباحات أيضاً ما من شيء فيها إلا ويحتمل نية أو نيات، يصير بها المباح من محاسن القربات وينال به معالي الدرجات. فما أعظم إذن خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم عن سهو وغفلة.

ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات واللحظات، فكل ذلك سيسأل عنه يوم القيامة، أنه لم فعلها وما الذي قصد بها. ولذلك قال النبي ﷺ:

«حلالها حساب وحرامها عذاب».

ومن الأمور المباحة التطيّب، ففي الخبر:

«من تطيّب لله تعالى، جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيّب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة».

فاستعمال الطيب مباح، ولكن لا بد فيه من نيّة. فمن تطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات بنية وقصد التنعّم بلذات الدنيا، أو بقصد التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو بقصد رئاء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم فيذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد إلى النساء الأجنبيات إذا كان

مهيأ للنظر إليهن، أو لأمور أخرى، كل ذلك يجعل تطيبه معصية، فيكون بذلك أنتن من الجيفة في يوم القيامة. أما النية الحسنة فإنه ينوي بها اتباع سنة النبي ﷺ، أو أن ينوي بها تعظيم المسجد واحترام بيت الله عز وجل، أو بقصد ترويح جيرانه ليستريحوا عند مجاورته برائحته، أو أن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه والتي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، أو أن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، وقد قيل: من طاب ريحه زاد عقله. فهذه وأمثالها من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كان طلب الخير وتجارة الآخرة غالبة على قلبه. أما لو غلب على قلبه نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات. والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها، فيمكن أن يقصد وجه الله تعالى في كل من هذه المباحات.

إن كل ما كان سبباً لبقاء البدن وفراغ القلب فهو معين على الدين، لذا فمن كان قصده من الأكل التقوّي على العبادة، ومن الوقاع تحصين دينه وتطيّب قلب أهله والتوصل به إلى ولد يعبد الله فيكثر به أمّة محمد ﷺ، كان مطيعاً وعابداً في أكله ونكاحه. فأغلب حظوظ النفس واقعة في الأكل والوقاع؛ إلا أن قصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه همّ الآخرة.

■ النتيجة:

وبالجملة: فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك، فلا تحذر من غرورها وشرورها فلا تجد لها جواباً يوم السؤال والحساب، فإن الله مطّلع عليك وشهيد:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

فإن كنت من أولي الحزم والنهي ولم تكن من المغترين، فانظر إلى نفسك ودقق الحساب معها قبل أن يدقق عليك. وراقب أحوالك ولا

تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولاً في نيتك ومقصدك من التحرك. وما الذي ستناله به من الدنيا وما الذي سيفوتك به من الآخرة.

فإذا علمت أنه لا باعث لك إلا الدين فامض في عزمك وما خطر ببالك، وإلا فامسك ثم راقب قلبك أيضاً في إمساكك وامتناعك. فإن ترك الفعل عبارة عن فعل ولا بد للفعل من نية صحيحة.

فلا تغرّنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات، بل انظر إلى الأغوار والأسرار حتى تخرج من حيّز أهل الاغترار. فقد روي عن زكريا عليه السلام: إنه كان يعمل في حائط بالطين وكان أجير القوم فقدموا له رغيفين، إذ كان لا يأكل إلا من كسب يديه. فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ منه، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال عليه السلام:

إنني أعمل لقوم بأجرة وقدّموا لي الرغيفين لأتقوى بهما على عملهم. فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم.

فالبصير هكذا ينظر إلى البواطن بنور الله، فإن ضعفه عن العمل نقص في الفريضة وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل، ولا حكم للفضائل مع الفرائض.

فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيّته في سائر الأعمال فلا يقدم على أي عمل أو يحجم عنه إلا بنية. وإن لم تحضره النية توقف، فإن النية لا تدخل تحت الاختيار.

النية غير داخلة تحت الاختيار

إن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها، فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: نويت أن أدرس لله تعالى، أو أتّجر أو آكل، ويظن أن ذلك نيّة، ولكن هيهات فذلك حديث نفس أو حديث لسان أو فكرة، أو انتقال من خاطر إلى خاطر.

والنية بمعزل عن جميع ذلك؛ إنما هي انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أنّ فيه غرضها عاجلاً أم آجلاً. والميل إذا لم يكن موجوداً لا يمكن اختراعه أو اكتسابه بمجرّد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه وأعظّمه بقلبي، فذلك كله محال.

بل لا طريق إلى اكتساب ميل القلب شيء ما وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وهذا مما قد يقدر عليه الإنسان أو لا يقدر.

فالنفس إنما تنبعث إلى الفعل إجابة للغرض الباعث، الموافق للنفس والملائم لها. وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فإنه لن يتوجه نحوه، وهذا مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجّه إليه إذا كان القلب فارغاً وغير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وهذا ما لا يمكن تحصيله في كل وقت

لأن الدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة، ولاختلاف الأشخاص واختلاف أحوالهم وأعمالهم.

فإذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد بغرض صحيح في الولد ديناً ودنيا، لم يمكنه أن يواقع على نية الولد، بل لا يمكنه ذلك إلا على نيّة قضاء الشهوة، إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث هنا إلا الشهوة فكيف ينوي الولد.

وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح اتباعاً لرسول الله ﷺ يعظم فضلها، لم يمكنه أن ينوي اتباع السنة، إلا أن يقول ذلك بلسانه قط وهو حديث محض وليس بنيّة.

نعم إن طريق اكتساب هذه النيّة هو بأن يقوّي إيمانه بالشرع ويقوّي إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمّة محمد ﷺ.

فربما انبعثت في قلبه رغبة إلى تحصيل الولد لأجل الثواب، فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد، وإذا نهضت القدرة المحركة للسان لقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً، وإذا لم يكن كذلك فما يقدّره في نفسه ويردّده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان، ولهذا امتنعت جماعة عن جملة من الطاعات إذا لم تحضرهم النيّة.

فكانوا إذا سئلوا عملاً من أعمال البرّ قالوا: إن رزقنا الله تعالى النية فعلنا. روي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إنه أتاه مولى له فسلّم عليه وجلس. فلما انصرف عليه السلام، انصرف الرجل معه. فلما انتهى إلى باب داره دخل وترك الرجل، فقال له ابنه إسماعيل: يا أبه ألا كنت عرضت عليه الدخول؟ فقال عليه السلام: لم يكن من شأني إدخاله. قال: فهو لم يكن يدخل، قال عليه السلام: يا

بني إني أكره أن يكتبني الله عرَّاضاً»[1].

هذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغيّر النظر تغيّرت النية، فكانوا لا يروْن أن يعملوا عملاً إلا بوجود نية، لعلمهم بأن النيّة روح الأعمال وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف، وهو سبب مقت لا سبب قرب.

وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه «نويت» بل هي انبعاث في القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى، قد يتيسّر في بعض الأوقات وقد يتعذّر.

فإذا كان الغالب على قلبه أمر الدين يتيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النيّة للخيرات، لأن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير. أما من كان قلبه مائلاً إلى الدنيا لم يتيسّر له ذلك في الفرائض إلا بجهد جهيد وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه منها أو أن يتذكر نعم الجنة ويرغّب نفسه فيها، فعندها ربما تنبعث فيه داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته.

أما نية إجلال الله عز وجل لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسّر للراغب في الدنيا. وهذه هي أعزّ النيات وأعلاها، ويعز من يفهمها فضلاً عمن يتعاطاها. فنيات الناس في الطاعة أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف من النار، ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة، ومنها أن يكون عمله بقصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه.

والرغبة في الجنة وإن كانت أدنى مرتبة بالنسبة لقصد طاعة الله لذاته، إلا أنها من جملة النيات الصحيحة، لأنها ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان هذا الموعود من جنس المألوف في الدنيا. فإن أغلب

---

(١) كتاب المحاسن: ص٤١٧، رقم: ١٨٠.

البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة، بحيث إن العامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير، ودرجته درجة البله وأكثر أهل الجنة البله.

أما عبادة ذوي الألباب فلا تجاوز ذكر الله تعالى والتفكر فيه حباً لجماله وجلاله، أما سائر الأعمال فتكون مؤكدات وروادف. وهؤلاء أرفع درجة من الملتفتين إلى المنكوح والمطعوم في الجنة، بل هم:

﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

ولأن ثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم أنه سيتمتع هؤلاء بالنظر إلى وجهه الكريم، وسيسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين، كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور الترابية.

لكن التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم بكثير من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين.

بل إن استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضها عن جمال وجه الله الكريم، يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وألفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء.

فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء، فإنها لا تشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه.

فالنيات إذاً متفاوتة الدرجات، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لم يتيسّر له العدول إلى غيرها. فمن حضرت له نية في مباح ولم

تحضر في فضيلة، كان المباح أولى له وصارت الفضيلة في حقّه نقيصة لأن الأعمال بالنيات. وذلك مثل أن يكون له نية في الشرب والأكل والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادة في المستقبل. فمن ملّ العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته، وعلم أنه لو ترفّه ساعة بلهو وحديث لعاد نشاطه إليه، فاللهو والحديث في هذه الحالة أفضل من الصلاة. قال الإمام علي عليه السلام:

«روِّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت».

وهذه دقائق لا يدركها إلا العلماء. وسلوك طريق الله عز وجل كلّه قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب. والبصير الموفق هو الذي يقف على لطائف الحيل التي يستبعدها الضعفاء. فلا ينبغي أن ينكر المريد ما يراه من شيخه، ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه، بل ينبغي أن يقف على حدّ بصيرته وما لم يفهمه من أحوالهما يسلّمه لهما إلى أن ينكشف له أسرارهما بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما.

فضيلة الإخلاص في الآيات والروايات

■ الإخلاص في الآيات القرآنية:

قال الله تعالى في فضيلة الإخلاص:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(1).

وقال عز وجل:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾(2).

وقال عز اسمه:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾(3).

وقال:

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾(4).

---

(1) سورة البينة، الآية: ٥.
(2) سورة الزمر، الآية: ٣.
(3) سورة النساء، الآية: ١٤٦.
(4) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

■ الإخلاص في الأخبار والروايات:

عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله عز وجل...»[1].

وقال ﷺ:

«إنما نصر الله هذه الأمّة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم»[2].

وعن النبي ﷺ أيضاً أنه قال:

«قال الله تعالى: الإخلاص سرٌّ من أسراري أستودعه قلب من أحببت من عبادي».

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«لا تهتموا لقلة العمل اهتموا للقبول فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: أخلص العمل يجزك منه القليل»[3].

وقال النبي ﷺ:

«ما من عبد يخلص العمل لله تعالى أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[4].

وقال النبي ﷺ:

«أوّل من يسأل يوم القيامة ثلاث: رجل آتاه الله

---

(١) الترمذي: ج١٠، ص١٢٥.
(٢) النسائي: ج٦، ص٤٥.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك.
(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

العلم، فيقول الله تعالى: ماذا صنعت فيما علمت؟ فيقول: يا رب كنت أقوم به آناء الليل والنهار، فيقول الله عز وجل: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال: فلان عالم، ألا فقد قيل ذلك.

ورجل آتاه الله مالاً فيقول الله تعالى: قد أنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا ربّ كنت أتصدق به آناء الليل والنهار، فيقول الله عز وجل: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، أردت أن يقال: فلان جواد. ألا فقد قيل ذلك.

ورجل قتل في سبيل الله، فيقول الله تعالى: ماذا صنعت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فقاتلت في سبيلك حتى قتلت، فيقول الله عز وجل: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان شجاع، ألا فقد قيل ذلك»(١).

وفي الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إن ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى. فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها. فاستقبله إبليس في صورة شيخ وقال له: أين تريد رحمك الله. قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة.

قال: وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرّغت لغير ذلك.

فقال العابد: إنّ هذا من عبادتي.

---

(١) أخرجه الترمذي: ج٨، ص٢٢٩.

قال إبليس: فإني لا أتركك تقطعها، فقاتله فأخذه العابد وطرحه على الأرض وقعد على صدره.

فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك. فقام عنه، فقال له إبليس: يا هذا إن الله عز وجل قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك، وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها. فقال العابد: لا بد لي من قطعها. فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره، فعجز إبليس وقال: هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع. قال العابد وما هو؟

قال إبليس: أطلقني حتى أقول لك، فأطلقه، فقال له إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك، إنما أنت كلٌّ على الناس يعولونك، ولعلك تحبّ أن تتفضل على إخوانك، وتواصي جيرانك، وتشبع وتستغني عن الناس.

قال العابد: نعم.

قال إبليس: إذاً فارجع عن هذا الأمر ولك عليّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين، إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدّقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرّهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها.

فتفكر العابد فيما قال، وقال: صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة. فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبّده فبات، ولمّا أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك في الغد حتى أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم يجد شيئاً فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة الشيخ فقال له: إلى أين؟

فقال: اقطع تلك الشجرة.

فقال إبليس: كذبت والله، وما أنت بقادر على ذلك، ولا سبيل لك إليها. فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أوّل مرّة فقال: هيهات فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه، وقعد إبليس على صدره. فقال: لتنتهينّ عن هذا الأمر أو لأقتلنّك. فنظر العابد فإذا لا طاقة له به.

فقال العابد: يا هذا غلبتني فخلِّ عني وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن؟ فقال إبليس: لأنك غضبت لله تعالى أوّل مرّة وكانت نيّتك الآخرة فسخّرني الله لك، وهذه الكرَّة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك.

وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[(١)].

إذاً لا خلاص للعبد من الشيطان إلا بالإخلاص.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«في قوله عز وجل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، قال عليه السلام: ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً. وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة الحسنة.

ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل؛ والعمل الخالص [هو] الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز وجل»[(٢)].

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩ و٤٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص١٦، ح٤.

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«ما أخلص العبد الإيمان بالله عز وجل أربعين يوماً إلا زهّده الله في الدنيا، وبصّره داءها ودواءها، فأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه»[1].

(١) الكافي: ج٢، ص١٦، ح٦.

حقيقة الإخلاص

إن كل شيء صفا عن شوب الغير وخلص عنه سمّي خالصاً، وسمّي الفعل المصفّى إخلاصاً. قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[1] فخلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به.

والإخلاص يضاده الشرك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك. إلا أن للشرك درجات فمنه خفي ومنه جليّ وكذا الإخلاص. والإخلاص والشرك يتواردان على القلب، فمحلهما القلب، وذلك إنما يكون في النيات والقصود. وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فكلما كان الباعث واحداً سمّي الفعل الصادر عنه إخلاصاً. والعادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص على تجريد قصد التقرّب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب. فمن كان غرضه محض التقرّب إلى الله تعالى فهو مخلص.

ولكن كلامنا الآن فيمن انبعث لقصد التقرّب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر؛ إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذلك كثير؛ كأن يصوم لينتفع من الحمية الحاصلة بالصوم مع

(١) سورة النحل، الآية: ٦٦.

قصد التقرّب، أو يحجّ ليصح مزاجه بحركة السفر أو ليهرب من عدو له، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلّم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها، أو يتعلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين قومه، أو. . .

فكلما كان الباعث هو التقرب إلى الله عز وجل ولكن أُضيفت إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل عليه أخف بسبب هذه الأمور؛ قد خرج عمله عن حدّ الإخلاص، وخرج عن كونه خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك. وقد جاء في الحديث القدسي:

«أنا أغنى الشركاء عن الشركة».

وبالجملة إن كل حظ من حظوظ الدنيا والذي تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قلَّ أم كثر؛ إذا تطرّق إلى العمل، تكدّر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط بحظوظه، منغمس في شهواته، بحيث إنه قلّما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة أو آجلة.

ولذلك قيل: من سلمت له في عمره خطوة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى، وهذه الحظوظ إن كانت هي وحدها الباعثة فلا تخفى شدة الأمر على صاحبها.

فالإخلاص إنما هو تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها، قليلها وكثيرها حتى يتجرّد فيه قصد التقرّب فلا يكون فيه باعث سواه.

وهذا لا يتصوّر إلا ممن كان محباً لله عز وجل ومستغرق الهمّ بالآخرة، بحيث لم يبق لحبّ الدنيا في قلبه قرار. فلا يتعلق قلبه بالأكل والشرب، بل تكون رغبته فيها من حيث إنه ضرورة الجبلّة، فلا يشتهي

الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى لو أنه كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل. فليس في قلبه حظٌّ من الفضول الزائد على الضرورة، وقدر الضرورة مطلوب عنده لأنه ضرورة دينه، فلا يكون له هم إلا لدينه. فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان عمله صحيح النية وخالصاً في جميع حركاته وسكناته. فلو نام مثلاً ليريح نفسه ليتقوّى بعدها على العبادة كان نومه عبادة وكانت له درجة المخلصين فيه.

وكما أن من يغلب عليه حبّ الله عز وجل وحبّ الآخرة تكتسب حركاته الاعتيادية صفة همّه فتصير إخلاصاً، فإن الذي يغلب عليه حب الدينا والعلوّ والرئاسة وبالجملة حب غير الله، تكتسب جميع حركاته الاعتيادية تلك الصفة، فلم تسلم له عباداته ـ من صوم وصلاة وغيرها ـ إلا نادراً.

فعلاج الإخلاص: كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرّد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، وعند ذلك يتيسّر الإخلاص.

فكم من عمل يتعب عليه الإنسان ويظن أنه خالص لوجه الله تعالى وهو فيه مغرور لأنه لا يدري وجه الآفة فيه، كما حكي عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صلّيتها في المسجد جماعة في الصف الأوّل، لأني تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثاني، فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إليّ في الصف الأول كان يسرّني، وكان السبب في استراحة قلبي من حيث لا أشعر.

وهذا الأمر دقيق وغامض وقلّما تسلم الأعمال من أمثاله، وقلّ من يتنبّه له، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلّها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾(١).

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾(٢).

وقوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٣).

وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة هم العلماء. لأن الباعث على نشر العلم عند الأكثرين منهم هو؛ لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء. والشيطان يلبّس عليهم ذلك ويقول لهم: إن غرضكم نشر دين الله والنضال عن شرع رسول الله ﷺ. فترى الواعظ منهم يمنّ على الله بنصيحته للخلق ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس لقوله وإقبالهم عليه، وهو يزعم أنه فرِحٌ بما تيسّر له من نصرة الدين، ولكن لو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً حتى انصرف الناس عنه وأقبلوا على هذا الواعظ الجديد لساءه ذلك وغمّه. فلو كان باعثه هو الدين لكان عليه أن يشكر الله عز وجل إذ كفاه هذا المهم بغيره. ثم إن الشيطان مع ذلك لا يخلّيه بل يقول له: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس منك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود. وهذا المسكين لا يدري أن انقياده للحق وتسليمه الأمر للأفضل أجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدّث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به ولاختاره بذلك على نفسه. وادعاء

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٣٣.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

مثل هذا الأمر قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور. لأن النفس سهل عليها الأخذ بالوعود قبل نزول الأمر بها، حتى إذا دهاها الأمر تغيّرت ورجعت ولم تف بالوعد.

وهذا الأمر لا يعرفه إلا من عرف مكائد الشيطان والنفس، وطال اشتغاله بامتحانها. فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل بها بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذّ، وهو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾. فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق، وإلا التحق بأتباع الشيطان وهو لا يشعر.

فحقيقة الإخلاص أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين؛ بل مطلوبه هو وجه الله فقط. والبيان الشافي يأتي من سيد الأولين والآخرينﷺ حيث سئل عن الإخلاص فقالﷺ:

«هو أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت»[١].

وهذه إشارة إلى قطع كل ما سوى الله عز وجل عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقاً.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن تحت رقم: ٣٩٧٢.

الشوائب المكدّرة للإخلاص

إن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي، وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء.

الدرجة الأول: وهي أظهر مشوشات الإخلاص وهو الرياء. حيث يدخل الشيطان هذه الآفة على المصلّي مهما كان مخلصاً في صلاته. حيث يقول للمصلي إذا ما نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل: حسن صوتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح حتى لا يزدريك أو يغتابك، فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى هذا على المبتدين من المريدين.

الدرجة الثانية: أن يكون المريد قد فهم هذه الآفة [الرياء] فأخذ منها حذره، حتى صار لا يطيع الشيطان فيه ولا يلتفت إليه، فيستمر في صلاته، إلا أن إبليس يأتيه هذه المرّة في معرض الخير ويقول له:

أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك، وما تفعله يؤثر في غيرك فيتأسون بك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت، وعليك الوزر إن أسأت. فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة.

وهذه الدرجة أدق وأغمض من الدرجة الأولى، وقد ينخدع بها من لا ينخدع بالأولى. وهو أيضاً عين الرياء ومبطلٌ للإخلاص. فإنه إن كان

يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً بحيث إنه لا يرتضي لغيره تركه، فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة؟ ولم لا يمكن أن تكون نفس غيره أعزّ عليه من نفسه؟ إن هذا محض التلبيس، فالمقتدي به قد استقام أمره واستنار قلبه، أما هو محض منافق، وسوف يعاقب على إظهاره أموراً ليس متصفاً بها في الحقيقة.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها وفيها يتنبه العبد لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أنّ الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحي من نفسه ومن ربّه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ. وهذا في الحقيقة أيضاً من الرياء الغامض لأنه حسّن صلاته في الخلوة ليحسنها في الملأ، فالتفاته في الخلوة والملأ كان إلى الخلق.

وهو يظن أن الرياء يزول عندما تستوي صلاته في الخلوة والملأ. ولكن هيهات؛ بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلوة والملأ، وإلا فهو شخص مشغول الهم بالخلق، وهذه من المكائد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى، فالشيطان عاجز عن دفع المصلي في هذه المرتبة إلى الخشوع لأجل الناس لأنه يعرف أن المصلي قد تفطن لحيله ووعاها. فيأتيه من باب آخر ويقول له:

تفكر في عظمة الله وجلاله، ومن أنت واقف بين يديه، واستحي من أن ينظر الله عز وجل إلى قلبك وهو غافل عنه. فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه وهو يظن أن ذلك هو عين الإخلاص، وهو في الحقيقة عين المكر والخداع.

فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلال الله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة، لا أن يختص حضورها عند حضور غيره. فعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، فلا يكون حضور الغير هو السبب في حضور هذا الخاطر، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً. فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو خارج عن صفوة الإخلاص مدنّس الباطن بالشرك الخفي من الرياء. وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء كما ورد في الخبر.

ولا يسلم أحد من الشيطان إلا من دقّ نظره وكان مشمولاً بعصمة الله وهدايته وتوفيقه. وإلا فالشيطان ملازم لأولئك الذين تفرغوا لعبادة الله عز وجل، لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشعر والطيب ولبس الثياب. فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستيناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك. فيكون انبعاث القلب في الباطن لأجل تلك الشهوات الخفية والمشوبة حتى يخرج بسببها عن حدّ الإخلاص في نهاية المطاف.

حكم العمل المشوب واستحقاقه للثواب

إن العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله عز وجل، بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس، فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثواباً أم عقاباً أم لا يقتضي شيئاً أصلاً؟

إن الذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله، أن ينظر الإنسان إلى قدر قوّة الباعث، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تساقطا وصار العمل لا له ولا عليه.

وإن كان باعث الرياء أقوى وأغلب لم يكن نافعاً بل كانت النتيجة مضرّة ومفضية إلى العقاب. نعم العقاب فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للرياء ولم يكن فيه شائبة التقرّب أبداً.

وإن كان قصد التقرّب أغلب من الباعث الآخر، كان له ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[2].

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٠.

فقصد الخير لا يضيع، فإن كان قصد التقرّب غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت الزيادة. وإن كان قصد التقرّب مغلوباً سقط بسبب غلبة القصد الفاسد.

وكشف الغطاء عن هذا الأمر؛ أن تأثير الأعمال في القلب من خلال تأكيد صفاتها. فالرياء من المهلكات، وغذاء هذا المهلك وقوّته من خلال العمل على وفقه. وعمل الخير من المنجيات، وإنما قوتها بالعمل على وفقها. فإذا اجتمعت الصفتان في القلب وعمل الإنسان على وفق مقتضى الرياء فقد قويت تلك الصفة، وإن عمل على وفق داعية الخير قويت أيضاً تلك الصفة.

وعليه فلا يضيع مثقال ذرّة من الخير والشرّ، ولا ينفك تأثيرها إما في إنارة القلب أو تسويده، وإما في تقريبه من الله تعالى أو إبعاده.

فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى مكانه. وإن كان الفعل مما يقرّبه شبرين والآخر يبعده شبراً فضل له شبر، وقد قال ﷺ:

«اتبع السيئة الحسنة تمحها».

فالغزاة إذا كان الباعث الأصلي لهم هو إعلاء كلمة الله؛ وأما الرغبة في الغنيمة فهي على سبيل التبعية، لم يحبط بذلك ثواب عملهم ولكن نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً، لأن هذا الإلتفات نقصان لا محالة. فقد روي أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله الرجل يقاتل حميّة والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله.

فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لعبّاد:

«ويلك يا عبّاد إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل له»[1].

وقال عليه السلام:

«كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً في قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾. قال عليه السلام: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمّع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة ربه. ثم قال: ما من عبدٍ أسرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسرّ شراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له شراً»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«قال الله تعالى: أنا خير شريك من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً»[4].

وهذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد به إلا الدنيا. كقوله صلى الله عليه وآله:

«من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له».

أو كان ذلك أغلب على نيته، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام، ولكن طلبها بأعمال الدين هو الحرام، لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن وضعها.

---

(١) الكافي ج٢، ص٢٩٣، ح١.

(٢) المصدر السابق: ح٣.

(٣) المصدر السابق: ح٢.

(٤) المصدر السابق، ص٢٩٥، ح٢.

وأما لفظ الشركة فهو يطلق عند التساوي. وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تساقطا، ولم يُرجَ عليه ثواب. والإنسان عند الشركة أبداً في خطر فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده، فربما يكون عليه وبالاً ولذلك قال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

أي أن لا يرجو اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط.

فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط. لذلك ينبغي أن يكون العبد دائماً بعد كمال الاجتهاد متردداً بين الردّ والقبول، خائفاً أن تكون في عباداته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها فلا يتمكن من مقاومتها. وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة. ولكن مع هذا أيضاً لا ينبغي أن يترك العمل عند الخوف من الآفة والرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان الذي مقصوده الأوّل تفويت الإخلاص على العبد، وبترك العبد للعمل يكون قد ضيّع العمل والإخلاص معاً.

وقد قيل: ترك العمل بسبب الخلق رئاء وفعله لأجل الخلق شرك.

وعن الإمام أبي جعفر عليه السلام:

«أنه سئل عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك، فقال عليه السلام: لا بأس ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر الله له في الناس الخير، إذا لم يكن صنع ذلك لذلك»[1].

---

(1) الكافي: ج٢، ص٢٩٧، ح١٨.

فضيلة الصدق في الآيات والرويات

قال الله تعالى في فضيلة الصدق:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1].

وقال النبي ﷺ:

«إن الصدق يهدي إلى البرّ والبرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه، والله تعالى قد وصف به الأنبياء في معرض المدح والثناء فقال:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾[2].

وقال عز وجل أيضاً:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤١.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٦.

وروي عن النبي ﷺ أنه سئل عن الكمال فقال:

«قول الحق والعمل بالصدق».

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»(١).

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن برّه بأهل بيته مدّ له في عمره»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فإن ذلك شيء اعتاده ولو تركه استوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»(٣).

وعنه عليه السلام قال لبعض أصحابه:

«انظر ما بلغ به عليٌّ عليه السلام عند رسول الله ﷺ فألزمه، فإن علياً عليه السلام إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله ﷺ بصدق الحديث وأداء الأمانة»(٤).

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٠٥، ح١٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٠، ح١١.

(٣) المصدر السابق: ح١٢.

(٤) المصدر السابق، ص١٠٤، ح٥.

درجات الصدق وعلاماته

إن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان:

١ ـ الصدق في القول.
٢ ـ الصدق في النية والإرادة.
٣ ـ الصدق في العزم.
٤ ـ الصدق في الوفاء بالعزم.
٥ ـ الصدق في العمل.
٦ ـ الصدق في تحقيق مقامات الدين.

١ ـ الصدق في القول:

وهو صدق اللسان ولا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبّه عليه. والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو المستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق.

ولكن لهذا الصدق كمالان:

١ ـ الاحتراز عن التورية: لأن التورية تقوم مقام الكذب. إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه. إلا

أن ذلك مما تمسّ الحاجة إليه وتقتضيه المصلحة في بعض الأحيان، كتأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم، والحذر من الظالمين، وفي حالة قتال الأعداء والاحتراز من اطلاعهم على الأسرار. . .

فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه لله تعالى وبما يأمره الحق به وتقتضيه ضرورة الدين. فإذا نطق به كان صادقاً وإن كان المفهوم من كلامه غير ما هو عليه. لأن الصدق ما أريد به الدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه. فقد قيل:

«إن النبي كان إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره»[(١)].

وذلك لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد. وهذا ليس من الكذب في شيء فقد قال النبيﷺ:

«ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً»[(٢)].

ورخّص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع:

«من أصلح بين اثنين ومن كانت له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب»[(٣)].

والصدق هنا يتحول إلى النية، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير. فكلما صح قصده وصدقت نيّته وتجرّدت للخير إرادته كان صادقاً وصديقاً، كيف ما كان لفظه.

إذاً فالكمال الأول أن يحترز عن صريح اللفظ وعن التورية إلا عند الضرورة.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه مسلم: ج٨، ص٢٨.

(٣) نحوه عن الصادق في الكافي: ج٢، ص٣٤٢.

٢ ـ الكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربّه كقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواتها فهو كاذب.

وكقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله عز وجل، لم يكن كلامه صادقاً. فإن من كان عبداً لنفسه أو عبداً للدنيا أو عبداً لشهواته، لم يكن صادقاً في قوله، فكل ما تقيّد به الإنسان فهو عبدٌ له كما قال عيسى ﵇: يا عبيد الدنيا.

وقال نبينا ﷺ:

«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، وعبد الحلّة وعبد الخميصة»[1].

فسمّي كل من تقيّد قلبه بشيء عبداً له. والعبد الحق لله تعالى هو الذي أخرج كل ما سوى الله تعالى من قلبه، حتى صار القلب فارغاً فحلّت فيه العبودية لله تعالى. فأصبح شغله بالله وبمحبته، وتقيّد باطنه وظاهره بطاعته، فليس له مراد إلا الله عز وجل.

وقد يتجاوز هذا المقام إلى مقام أسنى وهو أن يعتق نفسه من إرادته، فلا يقنع إلا بما يريده الله له من تقريب أو إبعاد، فتفنى إرادته في إرادة الله عز وجل. فإن حرّكه تحرّك وإن سكّنه سكن وإن ابتلاه رضي، فهو بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل. وهذا منتهى الصدق في العبودية. فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين.

٢ ـ الصدق في النية:

معناه أن لا يكون للإنسان باعث في الحركات والسكنات إلا الله

---

(١) أخرجه البخاري.

عز وجل. فإن مازج إرادته شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية، ويجوز أن يسمى صاحبه كذاباً. كما في الحديث الذي رويناه حين يُسأل العالم ماذا عملت، فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله عز وجل: كذبت، أردت أن يقال فلان عالم. فقد كذبه الله تعالى في إرادته ونيّته.

٣ ـ الصدق في العزم:

إن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه أو ببعضه، وإذا لقيت عدواً في سبيل الله قاتلته ولم أبال وإن قتلت. وإن أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله بظلم وميل إلى الخلق. فهذه العزيمة على فعل هذه الأمور قد يصادفها الإنسان في نفسه وقد تكون صادقة أحياناً وجازمة وقد يكون فيها أحياناً أخرى أيضاً ضعف وتردد يضاد الصدق في العزيمة.

فالصادق والصديق هو الذي تكون عزيمته في الخيرات كلها قوية وتامة ليس فيها تردد أو ضعف، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم الجازم المصمّم على الخيرات.

٤ ـ الصدق في الوفاء بالعزم:

إن النفس قد تعزم وتصمم على فعل أو التزام بأمر ما، ولكن مجرد العزم والتصميم لا مشقة فيه بل المؤونة فيه خفيفة، فالشهوات إذا هاجت انحلّت العزيمة وغلبت الشهوة فلم يحصل الوفاء بما عزمت النفس على القيام به، وهذا يضاد الصدق. ولذلك قال تعالى:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

٥ ـ الصدق في العمل:

وهو أن يجتهد في العمل حتى لا تكشف أعماله الظاهرة على أنه فاقد لبعض الصفات في الباطن. ولا ينبغي عليه أن يترك العمل، بل

عليه أن يحمل الباطن على تصديق الظاهر. فربّ واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره (أي ليس مبتلى بالرياء) ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فالناظر إليه يراه قائماً بين يدي الله عز وجل ولكنه في الباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته. فهذه الأعمال تكشف عن باطن هو فيه كاذب، وهو مطالب بالصدق في الأعمال.

وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار ولكن باطنه ليس متصفاً بذلك، فهو إذن غير صادق في عمله ولو لم يكن ملتفتاً إلى الخلق أو مرائياً.

ولا تكون النجاة إلا باستواء السريرة والعلانية، بحيث يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً منه.

إذن يمكننا أن نقول إن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سمّيت رياء ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت عن غير قصد سميت كذباً ويفوت بها الصدق. ولذلك قال النبي ﷺ:

«اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي واجعل علانيتي صالحة».

وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها»[1].

٦ ـ الصدق في تحقيق مقامات الدين:

وهو أعلى الدرجات وأعزها، كالصدق في الخوف والرجاء

(١) نهج البلاغة: قسم الخطب، رقم ١٧٣.

والتعظيم والزهد والرضا والحب والتوكل وسائر المقامات الأخرى. فإن لهذه المقامات مبادىء وغايات وحقائق، والصادق الحقيقي من نال حقيقة هذه المقامات. فإن الشيء إذا غلب وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً. كما يقال: فلان صدق القتال، وهذا هو الخوف الصادق. وقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[1].

وقال عز وجل في آية أخرى:

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[2].

وسئل أبو ذر (رض) عن الإيمان فقرأ هذه الآية، فقيل له: سألناك عن الإيمان فقال: «سألت رسول الله عن الإيمان فقرأ هذه الآية»[3].

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله ولكنه خوف غير صادق، أي غير بالغ درجة الحقيقة. أما تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفرّ لونه وترتعد فرائصه ويتنغصّ عليه عيشه وفي المقابل يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك ولذلك قال النبي ﷺ:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٣) الدر المنثور: ج١، ص١٦٩.

«لم أر مثل النار نام هاربها ولم أر مثل الجنة نام طالبها»[1].

فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا نهاية لهذه المقامات حتى تنال غايتها، ولكن لكل عبد منها حظ بحسب حاله وهو إما ضعيف أو قوي. فإذا قوي سمّي صادقاً. فمعرفة الله عز وجل وتعظيمه والخوف منه لا نهاية له. ولهذا قال رسول الله ﷺ لجبرئيل عليه السلام:

«أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال: لا تطيق ذلك. قال ﷺ: بلى أرني. قال: فواعده بالبقيع في ليلة مقمرة، فأتاه فنظر إليه فإذا هو قد سدّ الأفق، فوقع ﷺ مغشياً عليه، فأفاق وقد عاد جبرئيل عليه السلام إلى صورته الأولى. فقال ﷺ: ما ظننت أنّ أحداً من خلق الله عز وجل هكذا. قال عليه السلام: كيف ولو رأيت إسرافيل، إن العرش لعلى كاهله وإن رجليه قد مرقتا تخوم الأرضين السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع (العصفور الصغير)».

ولذلك قال النبي ﷺ:

«لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان حتى يرى الناس كالأباعر[2] في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير».

■ علامات الصدق:

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

---

(١) الترمذي: ج١٠، ص٦٥.

(٢) الأباعر: جمع بعر وهو الجمل.

«الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار على الله غير الله كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾».

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام «أني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلاء لا تقوم له الجبال؛ لأنظر كيف صدقه، فإن وجدته صابراً اتخذته وليّاً وحبيباً، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلقي خذلته ولم أبالِ». فإذن من علامات الصدق: كتمان المصائب والطاعات وكراهة اطلاع الخلق عليها. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فانظر في قصد معناك وغور دعواك وعيّرهما بقسطاس من الله عز وجل كأنك في القيامة، قال الله عز وجل: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ فإذا اعتدل معناك بغور دعواك ثبت لك الصدق.

وأدنى حدّ الصدق أن لا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان، ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع لروحه إن لم ينزع فماذا يصنع»[1].

(١) الكافي ج٢، الباب ٧٤.

القسم الرابع

التوكل والتوحيد

مقدمة

إن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقربين. وهو في نفسه غامض من حيث العلم وشاق من حيث العمل. ووجه الغموض فيه من حيث فهم كيفية كون ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شركاً في التوحيد، ومن جهة أخرى أن ترك الاعتماد عليها بالكامل طعن في السنة وقدح في الشرع، وتغيير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل.

فتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع في غاية الغموض والعسر. ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة خفائه إلا العلماء الذين اكتحلوا ـ من فضل الله تعالى ـ بأنوار الحقائق، فأبصروا وتحققوا، ثم نطقوا عما شاهدوه. ونحن سوف نذكر في هذا الفصل فضيلة التوكل، ثم نردفه بالتوحيد ثم نذكر حال التوكل وعمله.

فضيلة التوكل في الآيات والروايات

١ ـ فضيلة التوكل في الآيات:

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٤).

فمقام التوكل مقام صاحبه موسوم بمحبة الله ومضمون بكفايته، ومن الله حسبه وكافيه ومحبّه مراعيه، فقد فاز فوزاً عظيماً. فإن المحبوب لا يعذّب ولا يبعّد ولا يحجب، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾(٥). أما الطالب للكفاية من غيره فهو التارك للتوكل وهو المكذب لهذه الآيات. وقال الله عز وجل في آية أخرى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٦). أي عزيز لا يذلّ من استجار به ولا يضيع

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.

من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه. وهو عز وجل حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره.

وهو عز وجل القائل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[(١)].

فبيّن تعالى أن كل من سوى الله عبدٌ مسخرٌ، وحاجته مثل حاجتك فكيف تتكل عليه. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾[(٢)].

وقد قال تعالى أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[(٣)] وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[(٤)].

وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الله الواحد القهار.

٢ ـ فضيلة التوكل في الأخبار:

قال رسول الله ﷺ:

«لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[(٥)].

وقال ﷺ:

«من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله كل مؤونة ورزقه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٤.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.
(٣) سورة المنافقون، الآية: ٧.
(٤) سورة يونس، الآية: ٣.
(٥) الترمذي: ج٩ ص٢٠٧.

من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»[1].

وقال ﷺ:

«من سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده»[2].

وروي أنه لما قال جبرائيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام وقد رمي في النار من المنجنيق:

«ألك حاجة؟ فقال عليه السلام: «أما إليك فلا»، وفاء بقوله: «حسبي الله ونعم الوكيل» إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى به. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾[3]».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«أوصى الله تعالى إلى داود؛ ما اعتصم عبدٌ من عبادي دون أحدٍ من خلقي عرفت ذلك من نيته ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهنّ.

وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات والأرض من يديه وأسخت الأرض من تحته ولم أبال بأي واد هلك»[4].

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير.
(٢) رواه الطبراني في الأوسط.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٧.
(٤) الكافي: ج٢، ص٦٣، ح ١.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إنه قرأ في بعض الكتب أن الله يقول: وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي، لأقطعنّ أمل كل مؤمّل «من الناس» غيري باليأس، ولأكسونّه ثوب المذلّة عند الناس، ولأُنَحِيَنَّهُ من قربي، ولأبعدنّه من وصلي.

أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي، ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري، وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني!

فمن ذا الذي أمّلني لنوائبه فقطعته دونها؟! ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟!

جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي، وملأت سمواتي ممن لا يملّ عن تسبيحي، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي.

ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد إذني؟! فما لي أراه لاهياً عني؟!. أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعته فلم يسألني ردّه وسأل غيري، أفيراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة، ثم أسأل فلا أجيب سائلي؟! أبخيل أنا فيبخّلني عبدي؟! أوليس الجود والكرم لي، أوليس العفو والرحمة بيدي، أوليس أنا محلّ الآمال فمن يقطعها دوني؟!

أفلا يخشى المؤمّلون أن يؤملوا غيري؟! فلو أنّ أهل سماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً، ثم أعطيت كل

واحد منهم مثل ما أمّل الجميع، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرّة، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه؟! فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني»[1].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«إن الغنى والعزّ يجولان؛ فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا»[2].

وعن الإمام الكاظمعليه السلام قال في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[3]:

«التوكل على الله على درجات، منها أن تتوكل على الله في أمورك كلها فما فعل بك كنت عنه راضياً تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أن الحكم في ذلك له. فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به فيها وفي غيرها»[4].

(١) الكافي: ج٢، ص٦٦، ح ٧.
(٢) المصدر السابق، ص٦٤، ح ٣.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٤) الكافي: ج٢، ص٦٥.

التوحيد عماد التوكل وأصله

إن الإيمان هو التصديق، وكل تصديق بالقلب فهو علم، وإذا قوي العلم سمّي يقيناً، ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما يبتنى عليه التوكل وهو التوحيد، الذي يترجمه قولك: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وللتوحيد أربع مراتب هي:

■ المرتبة الأولى: من التوحيد؛ هي أن يقول الإنسان باللسان «لا إله إلا الله» وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين.

والموحّد في هذه المرتبة موحّد بمجرّد اللسان، وهذا التوحيد يعصم صاحبه في الدنيا من السيف.

■ المرتبة الثانية: أن يصدِّق قلبه بمعنى اللفظ كما صدّق به عموم المسلمين، وهو الاعتقاد.

والموحّد في هذه المرتبة بمعنى أنه معتقد بقلبه، وهي عقدة على القلب ليس فيها انشراح وانفتاح، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليها، ولم تضعف بالمعاصي عقدته.

■ المرتبة الثالثة: وهي أن يشاهد ما آمن به واعتقده بقلبه عن طريق الكشف، بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين. فيرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

فالموحّد في هذه المرتبة لا يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه.

■ المرتبة الرابعة: أن لا يرى إلا واحداً. وهي مشاهدة الصديقين، ويسميه أهل المعرفة الفناء في التوحيد. لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فهو إذاً لا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً في التوحيد، كان فانياً في توحيده عن نفسه، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق.

والموحّد في هذه المرتبة لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير، بل من حيث إنه واحد. وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد.

فالتوحيد بمجرد اللسان وهو المرتبة الأولى؛ عديم الجدوى كثير الضرر، مذموم الظاهر والباطن. ولكنه ينفع مدّة لحفظ القلب والبدن إلى حين حلول ساعة الموت. فتوحيد المنافق يصون بدنه عن السيف. وهذه المرتبة من التوحيد يتجرد عنها صاحبها بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده. ومجرد نطق اللسان ناقص القدر بالنسبة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانقسامه بإشراق نور الحق فيه، إذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[1].

وبقوله عز وجل:

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

■ كيفية ابتناء التوكل على التوحيد:

لمعرفة كيفية ابتناء التوكل على التوحيد نقول:

أما المرتبة الرابعة فلا يجوز الخوض في بيانها وليس التوكل مبنياً عليها. بل يحصل التوكل بالتوحيد الثالث. أما الأول وهو النفاق فهو واضح. وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود عند عموم المسلمين، وطريق تأكيده ودفع الحيل المبتدعة فيه مذكورة في علم الكلام.

وأما توحيد المرتبة الثالثة وهو الذي يبتنى عليه التوكل، نذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب.

وحاصل هذا التوحيد أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم، فالمتفرّد بإبداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له.

وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك.

فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة في ملكوت السماوات والأرض. وإذا انفتح لكل باب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر.

وإنما يصدّك الشيطان عن هذا التوحيد من خلال ما يلقيه الشيطان في قلبك من الشك والشرك، وهذا يحصل بطريقين:

أحدهما: الالتفات إلى اختيار الحيوانات.

والثاني: الالتفات إلى الجمادات.

أما الالتفات إلى الجمادات؛ كاعتمادك على المطر في خروج

الزرع ونباته ونمائه، وعلى الغيم في نزول المطر، وعلى البرد في اجتماع الغيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها، وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور. ولذلك قال تعالى:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1].

قيل معناه أنهم يقولون: لولا استواء الريح لما نجونا.

أما من انكشف له أمر العالم كما هو عليه، علم أنّ الريح هواء والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك، وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى هذا المحرّك وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له.

فالتفات العبد إلى النجاة بالريح يضاهي التفات من أُخذ لتجزّ رقبته فكتب الملك توقيعاً بالعفو عنه. فأخذ يشتغل بذكر الحبر والورق والقلم الذي به كتب التوقيع ويقول: لولا القلم لما تخلّصت فيرى نجاته من القلم لا من محرّك القلم وهو غاية الجهل. أما من علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخّر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب.

فالشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض، وكل حيوان وجماد مسخّر في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب. بل إن هذا من مجرّد التشبيه بأن الملك الموقع هو كاتب التوقيع، والحق أن الله هو الكاتب كما قال تعالى:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[2].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

فإذا انكشف لك أن جميع ما في السماوات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك إبليس خائباً وآيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك، فيأتيك في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية فيقول: كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره، فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك، وهذا الشخص هو الذي يجزّ رقبتك بسيفه وهو قادر عليك فإن شاء جزّ رقبتك وإن شاء عفا عنك فكيف لا تخافه ولا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه.

وعند هذا زلّت أقدام أكثر الناس إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم. فقد شاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخراً مضطراً كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مُسخراً، وعرفوا أنّ غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدب على الورق، فترى رأس القلم يسوِّد الورقة ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً عن صاحب اليد، فظنّت أن القلم هو الذي يسوّد البياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها.

فكذلك من لم ينشرح صدره بنور الله قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض، ومشاهدة كونه قاهراً وراء الكل، فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض.

بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله لهم كل ذرّة في الأرض والسماء بقدرته التي بها أنطق كل شيء، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسانٍ ذلق يتكلم بلا حرف ولا صوت ولا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون.

إن لكل ذرة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في

السرّ وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى. فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله الذي لا نهاية له. قال تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت، وإفشاء السرّ لؤم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار. وهل رأيت أميناً على أسرار الملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسرّه على الملأ. ولو جاز إفشاء كل سرّ لنا لما قال رسول الله ﷺ:

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

وللتوضيح نذكر مثالاً حتى يتبيّن أكثر كيفية ابتناء التوكل على التوحيد:

قال بعض الناظرين بمشكاة نور الله تعالى لورقة كان قد اسودّ وجهها بالحبر: ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً والآن قد ظهر عليه السواد، فلم سوّدت وجهك، وما هو السبب فيه؟

فقالت الورقة: ما أنصفتني في هذه المقالة فإني ما سوّدت وجهي بنفسي ولكن سل الحبر فإنه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقرّه ووطنه، فسافر عن الوطن ونزل بساحتي وسوّد وجهي ظلماً وعدواناً.

فقال: صدقت فسأل الحبر عن ذلك، فقال الحبر: ما أنصفتني؛ فإني كنت في المحبرة وادعاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها، فاعتدى عليّ القلم بطبعه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلدي وفرّق جمعي وبدّدني كما تراه على ساحة بيضاء فالسؤال ينبغي أن يوجّه له لا لي.

فقال الناظر: صدقت، ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه

وإخراجه للحبر من أوطانه، فقال القلم: سل اليد والأصابع، فإني كنت قصباً نابتاً على شط الأنهار متنزهاً بين الخضرة والأشجار، فجاءتني اليد بسكين فنحت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي ثم برتني وشقت رأسي ثم غمستني في سواد الحبر ومرارته. فلقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك فتنحّ عني وسل من قهرني، فقال: صدقت.

ثم سأل اليد عن ظلمها للقلم واستخدامها له وتعديها عليه، فقالت اليد: ما أنا إلا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحماً أو جسماً يتحرك بنفسه، إنما أنا مركب مسخّر ركبني فارس يقال له القدرة والقوة، وهي التي تردِّدني وتجول بي في نواحي الأرض، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذا لم يركبها مثل هذا الفارس القوي القاهر. أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم، ثم لا معاملة بينها وبين القلم. فأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم، فسل القدرة عن شأنها في استعمال اليد واستخدامها وكثرة ترديدها لها.

فقال: صدقت. ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد واستخدامها لها. فقالت اليد: دع عنك لومي ومعاتبتي، فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له، وكيف خفي عليك أمري؟ أو كيف ظننت أني ظلمت اليد لما ركبتها؟ ولقد كنت راكباً إياها قبل التحريك وما كنت أحرِّكها ولا أستسخرها بل كنت نائماً ساكناً نوماً حتى ظنّ ظانّون بي أني ميتة أو معدومة، لأني ما كنت لأتحرَّك حتى جاءني موكّل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني. فكانت لي قوة على مساعدته ولم يكن لي قوة على مخالفته، وهذا الموكّل يسمّى الإرادة ولا أعرفه إلا باسمه، إذ أزعجني من غمرة النوم وأرهقني. فقال: صدقت.

ثم سأل الإرادة ما الذي حداك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة

حتى دفعتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقاً لم تجد عنه مخلصاً ومناصاً. فقالت الإرادة: لا تعجل عليّ فلعلّ لنا عذراً وأنت تلوم، فإني ما انتهضت بنفسي ولكن أُنهضت، وما انبعثت ولكني بُعثت بحكم قاهر وأمر جازم. فقد كنت ساكنة قبل مجيئه، ولكن ورد عليّ من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل يأمرني بتحريك القدرة فحرّكتها اضطراراً، فإني مسكين مسخّر تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأي جرم سخّرت له وألزمت بطاعته، ولكن أدري أني في دعة وسكون ما لم يرد عليّ هذا الوارد القاهر، وهذا الحاكم العادل أو الظالم، فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك.

فقال الناظر: صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً ومعاتباً إياهم على استنهاض الإرادة. فقال العقل له: أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت. وقال القلب: أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بُسطت. وقال العلم: إنما أنا نقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل، وما انخططت بنفسي ولكن خططت. فكم كان هذا اللوح قبلي خالياً عني، فسل القلم عني فإن الخط لا يكون إلا بالقلم.

فعند هذا تتعتع السائل ولم يقنعه جوابه، وقال:

قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره. ولكني كنت أطيب نفساً بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً وعذراً ظاهراً. أما قولك؛ إني خط ونقش، وإنما خطني قلم فلست أفهمه!!

فإني لا أعلم قلماً إلا من قصب، ولا لوحاً إلا من حديد، أو خشب، ولا خطاً إلا بالحبر ولا سراجاً إلا من النار. وإني أسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك

شيئاً، فأنا أسمع جعجعة ولا أرى طحناً.

فقال له العلم: صدقت فيما قلت؛ فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف والمهالك في الطريق الذي توجّهت إليه كثيرة. فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه، فما هذا بعشك، فأدرج عنه فكلٌّ ميسّرٌ لما خلق له. وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصود؛ فألق سمعك وأنت شهيد.

واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة:

١ ـ عالم الملك والشهادة: ولقد كان الورق والحبر والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل بسهولة.

٢ ـ عالم الملكوت.

٣ ـ عالم الجبروت: وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاثة منازل:

١ ـ منزل القدرة.

٢ ـ منزل الإرادة.

٣ ـ منزل العلم.

وهو واسطة بين عالم الملك والملكوت. لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً. وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي بين الأرض والسماء. فلا هي في حدّ اضطراب الماء، ولا في حد سكون الأرض. فكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت، فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة، كان كمن يمشي في عالم الملكوت من غير تكعكع.

وأول عالم الملكوت القلم الذي يكتب به العلم، وفيه يحصل اليقين الذي يمشى به على الماء. أما سمعت رسول الله ﷺ يقول في عيسى عليه السلام:

«لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء»، لما قيل له إنه كان يمشي على الماء.

عندها قال السائل السالك: قد تحيّرت في أمري، واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق، ولست أدري أأطيق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا؟ فهل لذلك من علامة؟

فقال: نعم؛ افتح بصرك واجمع ضوء عينك وحدّقه نحوي فإن ظهر لك القلم الذي به اكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً للطريق، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع أوّل باب من أبواب الملكوت كوشف بالقلم. أما ترى كيف أن النبي ﷺ كوشف بالقلم إذ نزل عليه قوله تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[(١)].

فقال السالك: لقد فتحت بصري وحدّقته فوالله ما أرى إلا قصباً وخشباً ولا أعلم قلماً إلا كذلك.

فقال العلم: لقد أبعدت النجعة[(٢)]، أما سمعت أن متاع البيت يشبه ربّ البيت، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدي ولا قلمه سائر الأقلام ولا خطّه سائر الخطوط، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت. فليس الله في ذاته

(١) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) النجعة: طلب الشيء في موضعه.

بجسم، ولا هو في مكان، ولا يده من لحم وعظم ودم، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولا كلامه بصوت وحرف، ولا خطه رقم ورسم. فإن كنت لا تشاهد هذا، فكيف نزهت ذاته تعالى وصفاته عن ذوات الأجسام وصفاتها، ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات، فإن كنت قد فهمت من قوله:

«إن الله خلق آدم على صورته».

الصورة الظاهرية المدركة بالبصر فقد اشتبهت، وإن فهمت منه الصورة الباطنية التي تدرك بالبصائر (جمع بصيرة) لا بالأبصار (جمع بصر) فكن منزهاً صرفاً ومقدساً، واطو الطريق فإنك بالواد المقدس طوى. واستمع بسرّ قلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العزّ تنادي بما نودي به موسى: «إني أنا ربك الأعلى».

فلما سمع السالك من العلم ذلك، استشعر قصور نفسه وأنه عالق بين التشبيه والتنزيه، فاشتعل قلبه ناراً من حدّة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص، ولقد كاد زيته الذي في مشكاة قلبه يضيء، ولو لم تمسسه نارٌ، فلمّا نفخ فيه العلم اشتعل زيته فأصبح نوراً على نور، فقال له العلم:

اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك فلعلك تجد على النار هدى. ففتح السالك بصره فانكشف له القلم الإلهي. فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه، فما هو من خشب ولا قصب ولا رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر أصناف العلوم.

فقال السالك: نعم الرفيق العلم جزاه الله عني خيراً، إذ الآن ظهر لي صدق إنبائه عن أوصاف القلم. فعند ذلك ودّع السالك العلم وشكره وقال له: لقد طال مقامي عندك ومراودتي لك وأنا عازم على أن أسافر

إلى حضرة القلم فأسأله عن شأنه. فسافر إليه وقال له: أيها القلم ما لك تخطّ على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى تحريك القدرة وصرفها إلى المقدورات، فقال القلم: أفنسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعته من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد. قال السالك: لم أنس ذلك.

فقال القلم: فجوابي مثل جوابه.

قال السالك: كيف وأنت لا تشبهه.

قال القلم: أما سمعت: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته».

قال السالك: نعم.

قال القلم: فسل عن شأني الملقّب بيمين الملك فإني بقبضته، وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر له، فلا فرق بين القلم الإلهي والقلم الآدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة.

فقال السالك: ومن يمين الملك.

قال القلم: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[1].

قال السالك: نعم.

قال القلم: فالأقلام أيضاً في قبضته وهو الذي يردّدها.

فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم، ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه. بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه. فرأى القلم محرَّكاً في قبضته فظهر له عذر القلم. فسأل السالك اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

فقال اليمين: جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي القدرة. إذ اليد لا حكم لها بنفسها وإنما محرِّكها القدرة. فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب حتى استحقر ما كان قبلها، وسألها عن تحريك اليمين فقال: إنما أنا صفة فسلّ القادر، إذ العهدة على الموصوفات لا على الصفات. وعند هذا كاد يزيغ قلبه وينطق بالجرأة لسان السؤال، فثُبّت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾. فغشيته دهشة الحضرة فخرّ صعقاً يضطرب من غشيته مدّة، فلما أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك وأعزّ سلطانك، تبت إليك، وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهّار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك. وما لي إلا أن أسألك وأتضرّع إليك وابتهل بين يديك فأقول: اشرح لي صدري حتى أعرفك، وأحلل عقدة من لساني حتى أثني عليك.

فنودي من وراء الحجاب إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء، بل ارجع إليه، فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته، وما قاله فقله، فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال:

«سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

فقال السالك: إلهي إن لم يكن للّسان جرأة على الثناء عليك، فهل للقلب مطمع في معرفتك؟

فنودي إياك أن تتخطّى رقاب الصدّيقين أما سمعتهم يقولون:

«العجز عن درك الإدراك إدراك».

فيكفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا، عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا.

فعند هذا رجع السائل السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتبته، وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها: إقبلوا عذري؛ فإني كنت غريباً حديث العهد بالدخول في هذه البلاد، ولكل داخل دهشة، فما كان إنكاري عليكم إلا عن قصور وجهل والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أن المتفرّد بالملك والملكوت والعزّة والجبروت هو الله الواحد القهار.

فما أنتم إلا مسخّرون تحت قهره مردَّدون في قبضته، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن.

فهو الأول بالإضافة إلى الوجود، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد. وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه، فإنهم لا يزالون مترقّين من منزل إلى منزل إلى أن انتهى إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر. فهو آخر في المشاهدة أوّل في الوجود.

وهو باطن بالنسبة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس، وظاهر بالنسبة لمن يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت.

فهذا هو طريق التوحيد في الفعل بالنسبة إلى السالكين لطريق التوحيد، وهذا التوحيد هو عماد التوكل وأصله.

الجمع بين التوحيد واختيار الإنسان!

لقائل أن يقول؛ إن ما ذكر من التوحيد ظاهر وثابت بالنسبة للموجودات المسخرة، أما الإنسان فإنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخراً؟ الحق أن المشيئة ليست بيد الإنسان. إذ لو كانت المشيئة إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى ويتسلسل إلى غير نهاية.

وإذا لم تكن المشيئة إلى الإنسان ووجدت هذه المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها؛ إذاً لانصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة. فالحركة لازمة بالقدرة، والقدرة متحركة عند انجزام المشيئة، والمشيئة تحدث في القلب.

فهذه ضرورات مرتبة بعضها على بعض، وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة، ولا صرف القدرة إلى المقدور، ولا حتى إيجاد الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة. فالإنسان مضطرٌ في الجميع.

وهنا يأتي السؤال الأساسي؛ إنه ما ذكر لحد الآن هو جبر، والجبر يناقض الاختيار، فكيف يكون الإنسان مجبوراً ومختاراً في آن واحد؟

لو انكشف لك الغطاء لعرفت أن الإنسان في عين الاختيار مجبور، فهو مجبور على الاختيار. وكيف يفهم هذا من لم يفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً، يليق بما نذكر:

إن لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه إذ يقال:

ـ الإنسان يكتب بالإصبع.

ـ ويتنفس بالرئة والحنجرة.

ـ ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه.

فينسب إلى الإنسان خرق الماء، والتنفس والكتابة. وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور أعرب لك عنها بثلاث عبارات:

ـ حيث نسمي خرق الإنسان للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعياً.

ـ ونسمي تنفسه فعلاً إرادياً.

ـ ونسمي كتابته فعلاً اختيارياً.

والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح في الهواء انخرق لا محالة في الماء، فيكون الخرق بعد التخطي ضرورياً. والتنفس أيضاً، فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن. فكلما كان الثقل موجوداً وجد الانخراق، وكذلك كلما وجدت إرادة التنفس وجدت بعدها حركة الحنجرة بالضرورة. وكذلك هو الأمر بالنسبة للإرادة، فلو قصدت عين إنسان بإبرة طبق الأجفان اضطراراً، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر، مع أن تغميض الأجفان فعل إرادي. ولكن لأن الإبرة أرادت أن تقصد العين كانت الإرادة بالتغميض أمراً ضرورياً، بحيث إن الإنسان لو أراد أن يترك التغميض لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة.

أما الثالث وهو الاختياري فهو مظنّة الالتباس؛ كالكتابة والنطق، وهو الذي يقال فيه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، وإنه تارة يشاء

وأخرى لا يشاء، فيظن من هذا أن الأمر إلى الإنسان (الكاتب أو الناطق)، وهذا جهل بمعنى الاختيار!

■ بيان الاختيار:

إن الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بأنه موافق لك أم لا. والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحيّر وتردّد، وإلى ما قد يتردد العقل فيه.

فالذي تقطع به من غير تردد، أن تُقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدنك بسيف، ففي هذه الحالة لا تتردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق لسلامتك، لذا تنبعث الإرادة بالعلم ومن ثم القدرة بالإرادة وتحصل حركة الأجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف، وذلك من غير رويّة وفكرة ويكون ذلك بالإرادة.

ومن الأمور ما تتوقف على العقل والتمييز فلا يدرى أنها موافقة للإنسان أم لا. فيحتاج إلى الروية والفكر حتى يتبيّن أن هل الخير في الفعل أم في الترك؟

فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية وفكر، وانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والإبرة.

فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خيرٌ سميت هذه الإرادة اختياراً، وهي كلمة مشتقة في الخير، أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خيرٌ. فلم ينتظر في انبعاث هذه الإرادة إلا أن ظهور هذا الفعل خيرٌ. إلا أنَّ الخيريّة في دفع السيف ظهرت من غير رويّة بل على البديهة. أما ما توقف على العقل والتمييز فقد افتقر إلى الرويّة.

فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة انبعثت بإشارة العقل، فالعقل

يُحتاج إليه للتمييز بين الخير والشر، ولا يتصوّر أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والخيال، أو بحكم جزم من العقل.

ولذلك لو أراد الإنسان أن يجزّ رقبة نفسه لم يمكنه ذلك لا لعدم القدرة في اليد أو لعدم السكين، بل لفقد الإرادة الداعية لذلك. وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً للمصلحة أم لا.

وبديهي أن قتل الإنسان نفسه ليس موافقاً للمصلحة، فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه، إلا أن يضطر إليه الإنسان لكونه أهون الشرّين. ففي هذه الحالة يتوقف العقل عن الحكم ويتردد بين شرّ الشرّين. فإن ترجّح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه، وإن حكم العقل بأن القتل أقلّ شراً، انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه.

فداعية الإرادة مسخّرة لحكم العقل، والحسّ والقدرة مسخرة للداعية، والحركة مسخرة للقدرة، والكل مقدّر بالضرورة من حيث لا يدري.

فإذن معنى كونه مجبوراً؛ أن جميع ذلك حاصل في الإنسان من غيره لا منه، ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً، وحدث الحكم أيضاً بالجبر.

فإذن هو مجبور على الاختيار. ففعل النار في الإحراق مثلاً جبرٌ محض، وفعل الله اختيار محض، أما فعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين. فإنه جبر على الاختيار، وليس هذا مناقضاً للجبر والاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه. ويسمى فعل الله اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار هٰهنا، إرادة بعد تحيّر وتردّد، فإن ذلك في حقه محال.

كيفية الجمع بين التوحيد والشرع

لسائل أن يسأل أنه كيف الجمع بين التوحيد والشرع، ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله، ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد؟

نعم إن ذلك قد يكون غير مفهوم إذا كان للفاعل معنًى واحد. أما لو كان له معنيان فكان بمثابة الاسم المجمل المردد بينهما لم يكن هناك تناقض. كما يقال: قتل الأمير فلاناً، وفي نفس الوقت يقال: قتله الجلاد، ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر.

فكذلك العبد فهو فاعل بمعنى والله تعالى فاعل بمعنى آخر. فمعنى كون الله فاعلاً أنه المخترع الموجود. ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحلّ الذي خلق الله فيه القدرة والإرادة والعلم، فارتبطت بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترَع بالمخترِع. فكل ما له ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلاً له، كما يسمى الأمير قاتلاً والجلاد قاتلاً لأن القتل ارتبط بقدرتهما، ولكن على وجهين مختلفين، فلذلك يسمى فعلاً. ولأجل ذلك نسب الله الأفعال في القرآن مرّة إلى الملائكة ومرّة إلى العباد، ونسبها بعينها مرّة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١١.

ثم قال:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1].

وقال:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾[2].

ثم قال:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا﴾[3].

وقال:

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[4].

ثم قال:

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[5] وكان النافخ جبرئيل عليه السلام.

وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[6]، حيث قيل في التفسير أن معناه: فإذا قرأ عليك جبرئيل.

وقال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[7]. فأضاف الله

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٦٣ و٦٤.
(٣) سورة عبس، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.
(٤) سورة مريم، الآية: ١٧.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.
(٦) سورة القيامة، الآية: ١٨.
(٧) سورة التوبة، الآية: ١٤.

القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل، بل في آية أخرى صرّح قائلاً: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾[1] فهو جمع بين النفي والإثبات ظاهراً ولكن معناه؛ وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به رامياً، إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به رامياً، فهما معنيان مختلفان. وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[2].

ثم قال:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾[3] ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾[4].

وقال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[5].

وقال:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[6].

وقد قال رسول الله ﷺ في وصف ملك الأرحام:

«إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصوّرها

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) سورة الرحمن، الآيتان: ١، ٢.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٤.

(٥) سورة القيامة، الآيات: ١٧ ـ ١٩.

(٦) سورة الواقعة، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

جسداً، فيقول: يا رب أذكر أم أنثى أسوي أم معوجٌ
فيقول الله ما شاء، ويخلق الملك»[1].

وفي لفظ آخر:

«ويصوّر الملك ثم ينفخ فيها الروح بالسعادة أو بالشقاوة».

إذاً فلا فاعل في الحقيقة إلا الله تعالى، وإذا نسب الفعل إلى غيره فهو على نحو المجاز. ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«أصدق بيت قاله شاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[2].

أي كل ما لا قوام له في نفسه وإنما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل. وإنما حقّيته وحقيقته بغيره لا بنفسه.

فإذن لا حق بالحقيقة إلا الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فإنه قائم بذاته، وكل ما سواه قائم بقدرته. فهو الحق وما سواه باطل.

ولذا قال أحدهم: يا مسكين كان [أي الله] ولم تكن ويكون ولا تكون. فلما كنت اليوم صرت تقول: أنا وأنا. كن الآن كما لم تكن فإنّه اليوم كما كان. ويمكن أن ينقدح في النفس سؤال: إنه إن كان الكل من الله ولا فاعل غيره، فما معنى الثواب والعقاب والرضا والغضب؟ فكيف نفهم غضبه على ما هو من فعل نفسه؟

في الواقع إن فهم هذا الأمر، وإدراك هذه الحقيقة التوحيدية هو

---

(١) أخرجه البزار كما في المغني.

(٢) صحيح مسلم: ج٧، ص٤٩.

الذي يورث حال التوكل ويفضي إليه. ولا يتم هذا إلا من خلال الإيمان بالرحمة والحكمة الإلهية.

فالتوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب، والإيمان بالحكمة والرحمة الواسعة هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب، ومن ثم التوكل عليه. فالتوكل لا يحصل إلا بعد الثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إليه.

وهذا أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه طويلة، فنذكر حاصله ليعتقد به الطالب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه؛ وهو أن يصدّق تصديقاً يقينياً لا ضعف فيه ولا ريب:

إن الله تعالى لو خلق الخلائق كلهم على عقل كامل وعلم كامل، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرّفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا على الخير والشر والنفع والضرّ، ثم أمرهم أن يُدبّروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم؛ لما زاد مقتضى تدبيرهم جميعاً على ما دبره الله تعالى في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا نقص منها جناح بعوضة أيضاً.

بل كل ما خلق الله تعالى من السماوات والأرض إذا رجعوا فيها البصر وطوّلوا فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور.

وكل ما قسم الله بين عباده من رزق وأجل وسرور وفرح وهم وغمّ وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية؛ فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الذي ينبغي أن يكون عليه، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل. فلو كان هناك أحسن منه وادّخره مع القدرة على إظهاره ولم يفعله لكان بخلاً وهو يناقض الجود الإلهي، وظلماً يناقض العدل الإلهي. ولو لم يكن قادراً لكان عاجزاً وهو يناقض مقتضى الألوهية.

بل كل فقر وضرّ في الدنيا فهو نقصان في الدنيا وزيادة في الآخرة. وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره. إذ لولا الليل لما عرف النهار، ولولا المرض لم يتنعم الأصحاء بالصحة، ولولا النار لم يعرف أهل الجنة قدر النعمة.

فكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم، وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل. فكذلك تفخيم النعمة على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل. وما لم يخلق الناقص لم يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لم يظهر شرف الإنس. إذاً فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص. فكما أن قطع اليد إذا تأكّلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء الكامل بالناقص، فكذلك هو الأمر بالنسبة إلى القسم والتقدير في الدنيا والآخرة؛ فكل ذلك عدل لا جور فيه.

وهذا الآن بحر عظيم واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب من بحر التوحيد. فيه غرقت طوائف من القاصرين، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون. وأنه وراء هذا البحر سرّ القدر الذي تحيّر فيه الأكثرون، ومنع عن إفشاء سرّه المكاشفون.

والحاصل أن الخير والشر مقضيّ به وقد صار ما قضى الله به واجب الحصول بعد سبق المشيئة، فلا راد لحكمه ولا معقّب لقضائه وأمره.

بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم. وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولنقتصر على هذه الرموز من علوم المكاشفات التي هي أصول مقام التوكل، ولنرجع إلى علم المعاملة.

معنى التوكل وحدّه

□ معنى التوكل:

التوكل مشتق من الوكالة يقال: وكّل أمره إلى فلان أيّ فوّضه إليه، واعتمد عليه فيه. ويسمى الموكول إليه وكيلاً، ويسمّى المفوَّض إليه متّكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به. فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده.

□ حدّ التوكل:

إن من ادُّعي عليه بدعوى باطلة، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس؛ لم يكن متوكلاً عليه ولا واثق القلب مطمئن النفس بوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور:

١ ـ منتهى الهداية.

٢ ـ منتهى القوّة.

٣ ـ منتهى الفصاحة.

٤ ـ منتهى الشفقة.

ـ أما الهداية: فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً.

ـ أما القدرة والقوّة: فلكي يتجرأ على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن.

ـ أما الفصاحة: فهي أيضاً من القدرة، إلا أنها قدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما تجرأ عليه القلب.

ـ أما الشفقة: فليكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر عليه من المجهود. فالقدرة لا تغني لوحدها إذا لم يكن يهمه أمر من يدافع عنه، فلا يبالي به، أظفر به خصمه أو لا، هلك به حقّه أو لم يهلك. لذا كانت العناية منه والشفقة أمراً أساسياً بل ومطلوباً.

فإن كان الموكّل شاكاً في وجود هذه الأمور الأربعة في وكيله أو في واحدة منها، أو جوّز أن يكون خصمه أكمل في هذه الأربعة منه، لم تطمئن نفسه إلى وكيله بل بقي منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه، ويكون تفاوت أحواله في شدّة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده بوجود هذه الخصال في وكيله. والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر، فلا جرم إذاً تتفاوت أحوال المتوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه.

كما لو كان الوكيل هو والد الموكّل فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية بوالده، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية. وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع بها وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقواهم بياناً وأقدرهم على نصرة الحق.

فإذا عرفت التوكل في هذا المثال؛ فقس التوكل على الله تعالى، فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله ـ كما

سبق واعتقدت ـ وأنه عالم وقادر على كفاية العباد وأنه عطوف ورحيم بهم، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، إذا عرفت ذلك؛ اتكل قلبك لا محالة عليه وحده، ولم يلتفت إلى غيره، ولا إلى نفسه وحوله وقوته، لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد.

أما إذا لم تجد في نفسك هذه الحالة فإن السبب يعود إلى أمرين:

١ ـ إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة.

٢ـ وإما ضعف القلب ومرضه واستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه.

والتوكل لا يتم إلا بقوّة القلب وقوة اليقين معاً. إذ بهما يحصل السكون في القلب والطمأنينة. فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر. فكم من يقين لا طمأنينة معه، كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام:

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

حيث التمس عليه السلام أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله. فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ درجة النفس المطمئنة، وذلك لا يكون في البداية أصلاً.

فكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب، فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوّده، وكذا النصراني ولا يقين لهما أصلاً:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

رَبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه.

فإذن الجبن والجرأة غرائز ولا ينفع اليقين معها، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل، كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب. وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله. وقد قيل: مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته إنسان مثله.

وقال النبي ﷺ: «من استعزَّ بالعبد أذلّه الله»[1].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

درجات التوكل

إذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سمّيت توكلاً فاعلم أن تلك الحالة في القوة والضعف على ثلاث درجات:

الأولى: ما ذكرناه؛ وهي أن تكون حاله في حق الله والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل.

الثانية: وهي أقوى؛ وهي أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع أمّه فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى ما سواها، ولا يعتمد إلا عليها. فإن رآها تعلق بها وتشبث بذيلها ولم يخلّها. وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه: يا أمّاه وأول خاطر يخطر على قلبه أمّه.

فهي مفزعه لأنه وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها. ومن كان حاله مع الله ونظره إليه واعتماده عليه كحال الصبي مع أمّه فهو متوكل حقاً.

والفرق بين هذه الدرجة والدرجة الأولى؛ أن هذا متوكل وقد فني عن توكله، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى المتوكل عليه قط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه.

أما المتوكل في الدرجة الأولى؛ فمتوكل بالتكلف والكسب وليس فانياً عن توكله. أي أن له التفات إلى توكّله وهذا شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه.

الثالثة: وهي أعلى المراتب، فيها يكون الإنسان بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميّت بين يدي الغاسل، بحيث تحركه القدرة الأزلية كما تحرّك يد الغاسل الميّت. والمتوكل في هذه الدرجة أصبح يقينه قوياً بأن الله تعالى هو مجري الحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات، وأن كل الأمور تحدث جبراً فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه.

وهذه الدرجة تفارق درجة الصبي؛ فإن الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلّق بذيلها ويعدو خلفها. أما الدرجة الثالثة فمثالها الصبي الذي يعلم أنه وإن لم يزعق فإن أمّه تطلبه، وإن لم يتعلق بذيلها فأمه تأتي إليه وتحمله، وإن لم يسأل عن اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه.

وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته، وأنه يعطي ابتداء أفضل وأكثر مما يسأل. فكم من نعمة ابتدأها قبل الدعاء وقبل الاستحقاق. أما المقام الثاني فلا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه، وإنما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط.

فهذه الأحوال والمقامات يعد الوصول إليها عزيزاً ونادراً، والمقام الثاني والثالث أعزّها، والأول أقرب إلى الإمكان. ثم إذا وجد الثاني والثالث فدوامه أبعد منه، بل يكاد لا يكون المقام الثالث إلا كصفرة الوجل، لأن انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم، لأن القلب قد تعوّد وتطبّع على ملاحظة الأسباب الظاهرية والحول والقوة. أما المقام الثاني فإنه قد يدوم يوماً ويومين.

☐ التوكل والتدبير:

إن المقام الثالث ينفي التدبير رأساً ما دامت الحالة باقية، بل يكون صاحبها كالمبهوت. أما المقام الثاني فإنه ينفي التدبير أيضاً إلا من حيث

الفزع إلى الله تعالى بالدعاء والابتهال.

أما المقام الأول فلا ينفي أصل التدبير والاختيار، ولكن ينفي بعض التدبيرات، كالمتوكل على وكيله في خصومة ما فإنه يترك له أمر التدبير. ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه الوكيل وأمره به، بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له وكيله. ولو ترك شيئاً من ذلك لكان نقصاً في توكله.

كما أنه لا يترك في هذا المقام التدبير الذي عرفه من عادته وسنته من دون الحاجة إلى تصريح أو إشارة من أحد.

التوكل والكسب الحلال

قد يظن أن معنى التوكل؛ ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، واللحم على الوضم. وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين (أي مقام التوكل) بمحظورات الدين (أي القعود وترك التكسب والتدبير)؟

بل نكشف الغطاء عن الحق لنبيّن أن تأثير التوكل على حركة العبد وسعيه باختياره لا تعدو أربع حالات:

١ ـ إما أن يكون لأجل جلب نافع مفقود عنده؛ كالكسب.

٢ ـ إما لحفظ نافع موجود عنده؛ كالإدخار.

٣ ـ إما لدفع ضارّ لم ينزل به؛ كدفع الصائل والسارق والسباع.

٤ ـ إما لإزالة ضارّ قد نزل به؛ كالتداوي من المرض.

فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة إذاً، إما جلب نافع، أو حفظه، أو دفع ضار أو قطعه. وسنذكر الآن شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مع شواهد الشرع عليها.

التدبير لجلب ما هو نافع:

إن الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات: إما مقطوع

بها، أو مظنون بها ظناً يوثق به، أو موهوم بها وهماً لا تثق بالنفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه.

الدرجة الأولى: الأسباب المقطوع بها:

كالأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف عنه، كالطعام الذي هو سبب لسدّ الجوع، وهو سبب مقطوع به. أما الذي يوضع الطعام بين يديه وهو جائع ومحتاج إليه ولكن لا يمد إليه يده بحجة أنه متوكل وشرط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء. فإنك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز فقد جهلت سنة الله تعالى. تماماً كالذي يطمع في أن يخلق الله له نباتاً من غير زرع ولا بذر.

فليس التوكل في هذا المقام بالعمل، بل بالحال والعلم. أما العلم فهو أن تعلم أن الله تعالى هو خالق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة، وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك.

وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام. فكيف تعتمد على صحة يدك وقد تفلج؟ وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك؟

وكيف تعول على حضور الطعام وربما يسلط الله من يفسده؟

فإذا احتمل الإنسان عروض مثل هذه الطوارىء، لم يكن له ملاذ إلا التمسك بفضل الله، فبذلك فليفرح، وعليه فليتوكل. فإذا كان هذه حاله وعلمه ثم مدّ يده إلى الطعام كان متوكلاً.

الدرجة الثانية: الأسباب المظنونة ظناً يوثق بها:

الأسباب في هذه الدرجة مظنونة وغير متيقنة ولكن الغالب أن

المسببات لا تحصل دونها، واحتمال حصولها دونها بعيد. كالذي يفارق الأمصار ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس حاملاً الزاد معه. وليس ترك الزاد وعدم استصحابه شرطاً في التوكل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ولا يزال التوكل مِعه محفوظاً؛ بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق.

والدليل عليه أن الخواص كانوا لا تفارقهم الإبرة والمقراض والحبل والدلو ويقولون: وهذا لا يقدح في التوكل وسببه أن البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض، وقد جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بالحبل والدلو، ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي. والمسافر محتاج إلى الماء في سفره وهو لا يصبر عنه وإن صبر عن الطعام. كما يمكن أن ينخرق ثوبه أثناء السفر فتنكشف عورته ولا يوجد في البوادي المقراض والإبرة غالباً...

وما في هذه الدرجة لا يلتحق بالدرجة الأولى لأنه مظنون، لأنه يحتمل أن لا ينخرق الثوب، أو ربما يجد على رأس البئر من يسقيه. إذاً فبين الدرجتين فرق.

أما من انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق، وجلس متوكلاً، فهو آثم وساع في إهلاك نفسه.

نعم يمكن أن يخرج عن كونه حراماً بشرطين:

أحدهما: أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها، وسوّاها على الصبر عن الطعام أسبوعاً بحيث إنه يصبر عنه من غير ضيق قلب وتشوش خاطر، وتعذّر في ذكر الله تعالى.

الثاني: أن يكون بحيث يقوى على التقوّت بالحشيش وما يتفق له من الأشياء الخسيسة.

فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع أن يلقاه آدميّ أو ينتهي إلى حلّة أو قرية أو إلى حشيش يجتري به فيحيى به مجاهداً نفسه، والمجاهدة عماد التوكل. وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤهم من المتوكلين.

□ الإنسان وطلب الرزق:

لا ريب أن الإنسان مكلّف بطلب الرزق بالأسباب التي هداه الله إليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك مما أحلّه الله. وكما أن الصلاة والصيام والحج عبادات كلّف الله بها عباده ليتقربوا بها إليه، كذلك طلب الرزق الحلال عبادة كلّفهم الله به ليتقربوا به إليه. ولكنه سبحانه كلفهم أيضاً بأن لا يثقوا إلا به تعالى لا بالأسباب. كما أنه كلّفهم بأن لا يتكلوا على أعمالهم الحسنة بل على فضل الله ورحمته الواسعة.

قال رسول الله ﷺ: «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال»[(١)].

وأوحى الله تعالى إلى داود:

«إنك نعم العبد لولا أنك تأكل من بيت المال ولا تعملنّ بيدك شيئاً. فبكى داود أربعين صباحاً فألان الله له الحديد»[(٢)].

والأنبياء وأئمة الهدى ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ كانوا يعملون بأيديهم في طلب الرزق. ولو كان ترك الكسب خيراً لكانوا أولى به.

---

(١) الكافي: ج٥، ص٧٨، ح٦.
(٢) المصدر السابق، ص٧٤، ح٥.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه»[١].

«وسأل الإمام الصادق عليه السلام عن رجل فقيل: أصابته الحاجة: قال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربّه، فقال عليه السلام: من أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه. فقال عليه السلام: والله الذي يقوته أشدّ عبادة منه»[٢].

وقال رجل للإمام الصادق عليه السلام:

«لأقعدنّ في بيتي ولأصلينّ ولأصومنّ ولأعبدنّ ربي، فأما رزقي فسيأتيني. فقال عليه السلام: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم»[٣].

الدرجة الثالثة: الأسباب الموهومة التي لا تثق النفس بها:

كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة وفي تفاصيل الاكتساب ووجوهه. فذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها، وهو الذي عليه الناس كلهم، أي من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح، أما أخذ الشبهة أو الاكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والإتكال على الأسباب. ولا يخفى أن ذلك يبطل التوكل، ومثال هذه الأعمال الرُّقية[٤] والطِيَرة[٥] وغيرها..

---

(١) الفقيه: باب المعايش والمكاسب ص٣٥١، رقم ٢.

(٢) الكافي: ج٥، ص٧٨، رقم ٤.

(٣) الكافي: ج٥، ص٧٧، رقم ١.

(٤) الرُّقية: هي أن يستعان للحصول على أمرٍ بقوّى تفوق القوى الطبيعية.

(٥) الطِيَرة: ما يتشاءم به.

إذن فقد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج. وإن الذي لا يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون. وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه، وهو الاتكال على مسبب الأسباب، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل. أما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل معاً.

التوكل والإدخار

إن من حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في إدخاره ثلاث أحوال:

ـ **الحالة الأولى**: أن يأخذ قدر حاجته في الوقت، فيأكل إن كان جائعاً ويلبس إن كان عارياً ويشتري مسكناً متواضعاً إن كان محتاجاً إليه، أما الباقي من المال فيفرقه في الحال، أو لا يأخذه ولا يدّخره، إلا القدر الذي يدرك به من يستحقّه ويحتاج إليه، فيدّخره على هذه النيّة. وهذا هو الوفاء بموجب التوكل؛ وهي الدرجة العليا.

ـ **الحالة الثانية**: وهي الحالة المقابلة للأولى، والمخرجة صاحبها عن حدود التوحيد، وهي أن يقوم بالإدخار لسنةٍ فما فوقها. وهذا ليس من التوكل ولا صاحب هذه الحالة من المتوكلين أصلاً. فقد قيل لا يدّخر من الحيوانات إلا ثلاثة: الفأرة، والنملة، وابن آدم.

ـ **الحالة الثالثة**: وهي الدرجة الوسطى، بحيث يقوم الإنسان بالإدخار لأربعين يوماً فما دونه، بشرط أن يكون محتاجاً إليه على الدوام. فإدخار ما يحتاج إليه لا ينقص الدرجة. وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الإدخار، ولا يستشرف نفسه إلى أيدي الخلق، بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق.

أما إن كان يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر

والفكر، فالإدخار له أولى. لأن المقصود إصلاح القلوب لكي تتجرد لذكر الله. ورُبَّ شخص يشغله وجود المال، ورُبَّ شخص يشغله عدمه.

فالمحذور ما يشغل الإنسان عن الله. وإلا فالدنيا في عينها غير مذمومة. ولذلك بعث رسول الله ﷺ إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما، بل دعا الكل إلى الله وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا والتوجه بها إلى الله تعالى، وعمدة الاشتغال بالله هو القلب.

وهذا كله إلى الآن حكم المنفرد، أما المعيل فلا يخرج عن حدّ التوكل بإدخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم أما إدخار أكثر من ذلك فمبطل للتوكل. لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين، فإدخار ما يزيد عليه سببه ضعف القلب، وهذا يناقض قوّة التوكل.

فالمتوكل عبارة عن موحّد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره. وقد ادخر رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة[1] ونهى أم أيمن وغيرها عن أن تدخر شيئاً لغد.

وكان ﷺ إذا ادّخر لم ينقص ذلك من توكله، إذ كان لا يثق بما ادّخره، ولكنه ترك ذلك تعليماً للأقوياء من أمّته، وادّخر لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليسنّ ذلك للضعفاء من أمّته. ثم أخبر ﷺ:

«إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[2].

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) أخرجه أحمد والبيهقي.

تطبيباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط، فيتركون الميسور من الخير لعجزهم عن منتهى الدرجات، فما أرسل ﷺ إلا رحمة للعالمين على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم. فإذا فهمت هذا علمت أن الإدخار قد يضرّ بعض الناس وقد لا يضرّ.

التوكل ودفع الضرر عن النفس

إن الضرر الذي يراد دفعه قد يكون ضرراً نفسياً أو مالياً، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر؛ كالنوم في الأرض التي يكثر فيها السباع، أو في مجرى السيل من الوادي، أو تحت الجدار المائل أو السقف المكسور، فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرّض نفسه للهلاك بغير فائدة.

والأسباب الدافعة:

١ ـ **أسباب موهومة**: وترك الموهوم منها من شرط التوكل؛ كالكيِّ[١] والرقية والطيرة. فهي أمور تستعمل لإزالة المحذور بعد نزوله، أو لدفع ضرر متوقع، ولكن رسول الله ﷺ لم يصف المتوكلين إلا بترك الكيِّ والطيرة والرُّقية.

٢ ـ **أسباب قطعية**: وترك هذه الأسباب فيه وجه أيضاً إذا نال الضرر من إنسان مثله. فإنه إذا كان قادراً في هذه الحالة على الصبر وكان قادراً أيضاً على الدفع والتشفي، فشرط التوكل الاحتمال والصبر. كما قال الله تعالى:

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[٢].

---

(١) الكَيّ: إحراق الجلد بحديدة ونحوها.

(٢) سورة المزمل، الآيتان: ٩، ١٠.

وقال تعالى:

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[١].

وقال عز وجل:

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[٢].

وقال:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣].

وقال:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٤].

وهذا كما ذكرنا كلّه في أذى الناس. أما الصبر على أذى السباع والحيّات والعقارب وترك دفعها فليس من التوكل في شيء، إذ لا فائدة فيه. فالسعي في دفع الدفع أو تركه لا يراد لعينه بل لإعانته على الدين.

كما أنه لا ينقص التوكل في الأسباب الدافعة للضرر المالي، كإغلاق باب البيت عند الخروج، أو بأن يعقل الإنسان البعير لأن هذه الأسباب عرفت بسنّة الله تعالى، ولذلك قال الرسول ﷺ للأعرابي لما أهمل البعير وقال: توكلت على الله. فقال النبي ﷺ: «إعقلها وتوكّل»[٥].

وقال الله تعالى: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾[٦].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ٤٢.

(٥) رواه الترمذي من حديث أنس.

(٦) سورة النساء، الآية: ٧١.

وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾(1).

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾(2).

وقال عز وجل لموسى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾(3) لأن التحصين بالليل اختفاء عن أعين الأعداء.

ولقد اختفى رسول الله ﷺ في الغار اختفاءً عن أعين الأعداء ودفعاً للضرر. والتوكل في كل هذه الأسباب التي ذكرناها من قبيل حمل السلاح حذراً من العدو، وإغلاق الباب حذراً من اللص، وعقل البعير حذراً من أن ينطلق، إنما يحصل بشرطين:

١ ـ أن يعلم أن اللصّ لم يندفع عن بيته بإغلاق الباب، بل بدفع الله تعالى إياه. فكم من باب يغلق ولا ينفع إغلاقه. وكم من بعير يعقل ثم ينفلت، وكم من شخص أخذ السلاح ولكنه غلب وقتل. إذاً فشرط التوكل في دفع ما هو ضار أن لا يتكل الإنسان على هذه الأسباب أصلاً، إلا أن إتكاله الحقيقي يكون على مسبب الأسباب وحده لا شريك له.

٢ ـ الشرط الثاني أن يكون راضياً بما يقضي الله تعالى في ماله ونفسه. فيقول مثلاً: اللهم إن سلطت عليّ ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك. فإني لا أدري أنه هل هو رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري، وكيف ما قضيت فأنا راضٍ به. وما كنت قد أغلقت الباب تحصناً من قضائك وتسخطاً له، بل لأنه جري على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب. فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٢٣.

وعليه فإذا كانت هذه هي حال الإنسان عند دفعه للضرر لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب. فإذا عاد ووجد أن ما في البيت ما زال موجوداً، فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله، وإن لم يجده بل وجده مسروقاً نظر إلى قلبه، فإن وجده راضياً وفرحاً بذلك عالماً بأنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة، فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه. وإن تألم قلبه بفقده بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل، لأن التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي منها. نعم قد يصح منه مقام الصبر إن صبر على ما ألمَّ به بشرط أن يخفيه فلا يظهر الشكوى ولا يكثر سعيه في الطلب والتجسس.

وإن كان لا يقدر على ذلك حتى تأذّى قلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب بنفسه، فقد كانت السرقة مزيداً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات، وكذبه في جميع الدعاوي. فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدّق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها، فإنها خدّاعة أمّارة بالسوء ومدّعية للخير.

فمن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فإنه لا يدري أي الأسباب خيرٌ له. فهو إنما كان يستعين بالأسباب ليحافظ بها على دينه، إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع مثلاً، ولكن لم يكن ذلك عنده مقطوعاً إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقد ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه فيكون ثوابه في النصب والتعب.

إذن فينبغي أن لا يبالي المتوكل بفقد هذه الأسباب أو بقائها، فإنه لا يدري أيهما خيرٌ له في الدنيا وفي الآخرة، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان في الآخرة!!

التوكل والتداوي من الأمراض

إن المداواة بالأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى:

١ ـ أسباب مقطوع بها: كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع. وهذه الأسباب ليس من التوكل تركها، بل إن تركها حرام خصوصاً عند خوف الموت.

٢ ـ أسباب موهومة: وقد تحدثنا عنها سابقاً، كالكي والرُّقية. وشرط التوكل ترك هذه الأسباب وعدم الاعتماد عليها، لأن الإتكال عليها يعد غاية التعمق في ملاحظة الأسباب.

٣ ـ أسباب مظنونة: كالفصد والحجامة وشرب المسهل وسائر أبواب الطب، كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء، فهذه فعلها ليس مناقضاً للتوكل. ويدل على أن التداوي غير مناقض للتوكل فعل الرسولﷺ وقوله وأمره.

أ ـ أما قول الرسولﷺ:

فقد قالﷺ: «ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام»[١] أي الموت.

---

(١) أخرجه أحمد: ج١، ص٣٧٧.

وقالﷺ:

«تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء»[1].

وسئلﷺ عن الدواء والرّقى هل ترد من قدر الله تعالى فقالﷺ:

«هي من قدر الله تعالى»[2].

وفي الخبر المشهور: «ما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة»[3].

وقالﷺ:

«احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيّغ بكم الدم فيقتلكم»[4].

فذكر أن تبيّغ الدم قد يكون سبباً للموت وأنه قاتل بإذن الله، وبيّن أن إخراج الدم خلاص منه.

ب ـ أما أمره:

فقد أمرﷺ غير واحد من الصحابة بالتداوي والحمية. وقطع لسعد بن معاذ عرقاً أي فصده، وقال لعليعليه السلام وكان رمد العين:

«لا تأكل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فإنه أوفق لك، ـ يعني سلقاً قد طبخ بدقيق أو شعير ـ»[5].

ج ـ أما فعله:

فقد روي عن طريق أهل البيتعليهم السلام، أن رسول اللهﷺ كان يكتحل

---

(1) أخرجه الترمذي: ج٨، ص١٩٢.
(2) أخرجه الترمذي: ج٨، ص٢٢٤.
(3) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٣٤٧٩.
(4) مجمع الزوائد: ج٥، ص٩٣.
(5) أخرجه الترمذي: ج٨، ص١٩.

كل ليلة ويحتجم كل شهر. وقد تداوى ﷺ غير مرّة من العقرب وغيرها.

وروي أنه: «كان إذا نزل عليه الوحي تصدّع رأسه فكان يغلفه بالحناء»[1]. وفي خبر آخر أنه: «كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء»[2].

وأنه قد جعل على قرحة خرجت به تراباً[3].

وما روي في تداويه وأمره به كثير خارج عن الحصر، وقد صنف في ذلك كتاب وسمّي طب النبي ﷺ.

وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات: أن موسى عليه السلام اعتلّ بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علّته فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت. فقال: لا أتداوى حتى يعافيني من غير دواء، فطالت علّته، فقالوا له: إن دواء هذه العلة معروف ومجرّب وإنا نتداوى به فنبرأ، فقال عليه السلام: لا أتداوى. فدامت علته فأوحى الله إليه؛ وعزتي وجلالي لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك. فقال لهم: داووني بما ذكرتم، فداووه فبرأ. فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكّلك عليّ، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟ ويروى أن نبياً من الأنبياء شكا علة يجدها، فأوحى الله إليه: كل البيض[4]. وشكا نبي آخر الضعف، فأوحى الله إليه: كل اللّحم باللبن فإن فيها القوّة[5]. وقد روي أن قوماً شكوا إلى نبيّهم قبح أولادهم، فأوحى الله تعالى إليه: مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد.

---

(١) مجمع الزوائد: ج٥، ص٩٥.

(٢) الترمذي: ج٨، ص٢١١.

(٣) مسلم: ج٧، ص١٧.

(٤) الكافي: ج٦، ص٣٢٥.

(٥) المصدر السابق، ص٣١٦.

ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع، إذ فيه يصوّر الله تعالى الولد. وقد كانوا يطعمون الحبالى السفرجل، والنفساء الرطب.

فبذلك يتبيّن أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب، إظهاراً للحكمة. والأدوية أسباب مسخّرة لحكمة الله تعالى كسائر الأسباب.

الفهرس

القسم الأول: عجائب القلب

معرفة القلب أساس طريق السالكين ٧

□ ميزات القلب ٧

الفرق بين القلب والنفس والروح والعقل ٩

□ معنى القلب ٩

□ معنى الروح ١٠

□ معنى النفس ١١

□ معنى العقل ١٢

أنواع جنود القلب ١٥

العلاقة بين القلب وجنوده الباطنية ١٩

صفات القلب ٢١

□ آثار طاعة الشهوة والغضب والشيطان ٢٤

□ آثار الطاعة للصفات الربانية ٢٤

الأسباب المانعة من تجلي الحق في القلب ٢٩

ميِّزات قلب الإنسان ٣٥

العلم وكيفية حصوله ٣٧

أقسام العلوم ٤١

١ ـ العلوم العقلية ٤١
٢ ـ العلوم الشرعية (الدينية) ٤٣
الفرق بين الإلهام والتعلم ٤٥
كيفية حصول العلم الملهم من القلب ٤٩
شواهد من الشرع على صحة طريق الإلهام ٥٥
معنى الوسوسة وأسباب غلبتها ٥٩
□ كيفية محو الوسوسة ٦٣
بعض طرق الشيطان في الوسوسة ٦٥
مداخل الشيطان إلى القلب ٧١
١ ـ الحرص والحسد ٧١
٢ ـ الغضب والشهوة ٧٢
٣ ـ التزيّن بالثياب والأثاث والدار ٧٣
٤ ـ الشبع من الطعام ٧٤
٥ ـ الطمع في الناس ٧٤
٦ ـ العجلة ٧٥
٧ ـ الأموال والدراهم ٧٥
٨ ـ البخل وخوف الفقر ٧٦
٩ ـ التعصّب للمذاهب ٧٧
١٠ ـ حمل العامة على التفكر في ذات الله ٨٠
١١ ـ سوء الظن بالمسلمين ٨١
العلاج الذي يدفع وساوس الشيطان ٨٣
ما يؤاخذ به الإنسان من وساوس القلوب ٨٧
هل يمكن أن تنقطع وساوس الشيطان بالكامل؟ ٩٥
١ ـ الصنف الأول: الوسوسة لأجل تلبيس الحق ٩٦

٢ ـ الصنف الثاني: الوسوسة التي تحركِ الشهوة ٩٧
٣ ـ الصنف الثالث: الوسوسة بالخواطر ٩٧
أقسام القلوب في التغيّر والثبات ١٠١
الأول: القلب التقي ١٠٢
الثاني: القلب العابد للهوى ١٠٣
الثالث: القلب المؤمن ١٠٥
الرؤية التوحيدية للطاعات والمعاصي ١٠٧

القسم الثاني: المحبة ـ الشوق الرضا ـ الأنس

مقدمة ١١١
شواهد من الشرع على حب العبد لله ١١٢
حقيقة الحب ١١٧
أقسام الحب وأسبابه ١٢١
١ ـ حب الإنسان لنفسه ١٢١
٢ ـ الإنسان يحب من أحسن إليه ١٢٢
٣ ـ حب الشيء لذاته ١٢٣
٤ ـ حب الشيء لباطنه أو ظاهره الجميل ١٢٤
٥ ـ حب الشيء للمناسبة الخفيّة بين المحبّ والمحبوب ١٢٧
الله تعالى وحده المستحق للمحبة ١٢٩
السبب الأول ١٢٩
السبب الثاني ١٣١
السبب الثالث ١٣٣
السبب الرابع ١٣٤
السبب الخامس ١٣٩
معرفة الله وحبّه أسمى اللذات وأعلاها ١٤٣

معرفة الله في الآخرة موقوفة على معرفته في الدنيا ١٥١
الأسباب المقوِّية لحب الله ١٦٣
الأول: قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ١٦٣
الثاني: قوة معرفة الله واتساعها واستيلاؤها على القلب ١٦٥
سبب تفاوت الناس في الحب ١٧١
أسباب قصور أفهام الخلق عن معرفة الله ١٧٥
معنى الشوق إلى الله وطرق إثباته ١٨١
١ ـ طريق الاعتبار ١٨١
٢ ـ طريق النظر في الأخبار ١٨٣
علامات محبة الله للعبد ١٨٩
□ علامات حب الله للعبد ١٩٢
علامات محبة العبد لله عز وجل ١٩٥
١ ـ حب الموت ١٩٥
٢ ـ إيثار محبة الله على ما يحبه العبد ١٩٦
٣ ـ ذكر الله على الدوام ١٩٧
٤ ـ كمال الأنس بمناجاة الله والتنعم بالخلوة به ١٩٨
٥ ـ الرضا بحكم الله وقضائه ٢٠٠
٦ ـ حب الطاعة وعدم استثقالها أبداً ٢٠١
٧ ـ حب عباد الله ٢٠١
٨ ـ أن يكون حبه ممزوجاً بالخوف ٢٠٣
٩ ـ إخفاء الحب وعدم إظهاره ٢٠٦
١٠ ـ الأنس والرضا ٢٠٧
معنى الأُنس وعلامته ٢٠٩
□ علامة الأنس ٢١٠

معنى الانبساط وتفاوت العباد فيه ٢١٣
□ رضا الله على أهل الأنس والبسط ٢١٥
□ أسباب الاختلاف والتفاضل ٢١٦
معنى الرضا بقضاء الله وما ورد في فضيلته ٢٢١
١ ـ فضيلة الرضا في الآيات القرآنية ٢٢١
٢ ـ فضيلة الرضا في الروايات ٢٢٢
حقيقة الرضا بقضاء الله ٢٢٩
■ الوجه الأول ٢٢٩
■ الوجه الثاني ٢٣٠
كيفية الجمع بين الرضا ومقت المعاصي ٢٣١
□ كيفية الجمع بين الرضا وكراهة الشيء ٢٣٣
هجرة بلاد المعاصي لا يقدح في الرضا ٢٣٩

القسم الثالث: النية ـ الإخلاص ـ الصدق

مقدمة ٢٤٣
فضيلة النية في الآيات والروايات ٢٤٥
حقيقة النية ٢٥١
أقسام النية ٢٥٣
السرّ في كون النية خير من العمل ٢٥٥
الأعمال وارتباطها بالنية ٢٥٩
القسم الأول: المعاصي ٢٥٩
القسم الثاني: الطاعات ٢٦٢
القسم الثالث: المباحات ٢٦٤
■ النتيجة ٢٦٥
النية غير داخلة تحت الاختيار ٢٦٧

فضيلة الإخلاص في الآيات والروايات ٢٧٣
■ الإخلاص في الآيات القرآنية ٢٧٣
■ الإخلاص في الأخبار والروايات ٢٧٤
حقيقة الإخلاص ٢٧٩
الشوائب المكدّرة للإخلاص ٢٨٥
حكم العمل المشوب واستحقاقه للثواب ٢٨٩
فضيلة الصدق في الآيات والرويات ٢٩٣
درجات الصدق وعلاماته ٢٩٥
١ ـ الصدق في القول ٢٩٥
٢ ـ الصدق في النية ٢٩٧
٣ ـ الصدق في العزم ٢٩٨
٤ ـ الصدق في الوفاء بالعزم ٢٩٨
٥ ـ الصدق في العمل ٢٩٨
٦ ـ الصدق في تحقيق مقامات الدين ٢٩٩
■ علامات الصدق ٣٠١

القسم الرابع: التوكل والتوحيد

مقدمة ٣٠٥
فضيلة التوكل في الآيات والروايات ٣٠٦
١ ـ فضيلة التوكل في الآيات ٣٠٦
٢ ـ فضيلة التوكل في الأخبار ٣٠٧
التوحيد عماد التوكل وأصله ٣١١
■ كيفية ابتناء التوكل على التوحيد ٣١٣
الجمع بين التوحيد واختيار الإنسان! ٣٢٥
■ بيان الاختيار ٣٢٧

كيفية الجمع بين التوحيد والشرع ٣٢٩
معنى التوكل وحدّه ٣٣٥
☐ معنى التوكل ٣٣٥
☐ حدّ التوكل ٣٣٥
درجات التوكل ٣٣٩
☐ التوكل والتدبير ٣٤٠
التوكل والكسب الحلال ٣٤٣
التدبير لجلب ما هو نافع ٣٤٣
☐ الإنسان وطلب الرزق ٣٤٦
التوكل والإدخار ٣٤٩
التوكل ودفع الضرر عن النفس ٣٥٣
التوكل والتداوي من الأمراض ٣٥٧
الفهرس ٣٦١